روايات مصرية للجيب

سلسلة الروايات

5

Looloo
www.dvd4arab.com

المملكة المفقودة

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
ت : ٥٩٠٨٤٥٥ - ٢٨٣٥٥٥٤ - ٢٥٨٦١٩٧
فاكس : ٢٨٢٧٠٠٢

مقـــدمة

- اسمى (شريف عزمى) ..
- متخرج فى كلية الآثار وحاصل على الدكتوراه ..
- أعمل بجمعية علماء الآثار المصريين ..
- لى قراءات وبحوث عديدة عن آثار وكنوز الشعوب الغابرة ..
- أمتلك مكتبة ضخمة تضم أكثر الكتب ندرة فى علم الآثار ..
- لى باع لا بأس به فى اللغات القديمة .. وباع أفضل فى اللغات الحديثة ..
- أحب المغامرة .. وأعشق البحث عن الآثار المفقودة والكنوز المسلوبة ..
- رافقت أستاذى الدكتور (كمال سالم) فى رحلات قليلة .. ولكنها مفيدة ..
- حرصت على أن أسجّل كل رحلة لى تفصيليًا بعد اقتراح الدكتور (كمال) ..
- لذا .. فمن الآن وصاعدًا .. لن تفارقنى مذكرتى وأقلامى .. فى أى رحلة قادمة ..

شريف عزمى

١ ـ هنا موسكـو ..

« واحد .. اثنان .. ثلاثة »

« واحد .. اثنان .. ثلاثة »

لا بأس من القيام ببعض التمرينات الرياضية ، فالوقت صباحًا ولابد من المحافظة على حيوية ونشاط الجسم .. خصوصًا فى هذا الطقس البارد .. وإن صدق التعبير .. الطقس المثلج ..

هنا فى (موسكو) .. وبالذات فى أوائل فصل الشتاء .. إن لم يقم الشخص بمجهود مناسب يوميًا .. سيتجمد دمه ويصبح مثل الآيس كريم ..

منذ أكثر من أسبوع .. تلقيت دعوة من وزير الثقافة الروسى ـ عن طريق سفير دولتهم فى القاهرة ـ لقضاء أسبوع هناك .. فى تلك الفيلاّ الرائعة .. الواقعة على حدود العاصمة .. والمطلّة على أحد الروافد المتجمّدة لنهر (كاما) ..

الفيلاّ بها كل شىء .. حتى الخادم .. تسألوننى عن سبب دعوة سيادة الوزير .. أجيب بأن سيادته شاهد مراسم احتفال قاعة (سوبوكو) منذ عدة أشهر(*) .. ولم يتردّد فى دعوتى

(*) راجع قصة (الدرع الذهبية) العدد رقم (١) .

لمشاهدة معالم دولته .. على نفقة الحكومة .. هذا جميل .. ولكنكم لم تسألونى عن السبب الحقيقى لتلك الدعوة .. سأخبركم به .. إنه كشف غموض المملكة المفقودة ..

★ ★ ★

وطبعًا لأننى أحب مهنتى قبل أى شىء .. سأحاول البحث عن الاتجاه الذى رحلت فيه المملكة .. التى يفترض أنها ما زالت موجودة .. ليس هذا فقط .. بل وأحاول العثور على مكانها الصحيح ..

« هوب .. فوق »

« هوب .. تحت »

ولكن هل الخرائط المغولية الموجودة فى متحف (موسكو) .. لم تساعد فى الكشف عنها !! لقد قرأت كثيرًا عن تاريخ تلك المملكة .. وعرفت أن علماء الآثار بمختلف جنسياتهم قد حاولوا الكشف عنها .. ولكن محاولاتهم كانت عقيمة ..

وعرفت أيضًا أنه بلغت تكلفة التنقيب عنها بلايين الدولارات .. ولكن ذلك المال ذهب هباءً .. والحق أقول .. أنا غير مندهش .. فتلك المملكة قد ضربت جذورها فى عمق الزمن .. وعندما أرادت حضارتها أن ترى الضوء .. اجتثّت من فوق سطح

التاريخ بلا هوادة .. أى أنه ليس هناك دليل على وجودها غير بضعة من النصوص المغولية .. وخريطة لم يتبق منها غير خيالات الخطوط المرسومة عليها .. وهذا ما يحيّر العلماء .. وما يدفعهم للبحث عنها .. هذا هو الإنسان .. لا يهدأ بالاً حتى يعرف كل شىء .. كل شىء ..

★ ★ ★

« واحد .. اثنان » .. « هوب »

إن مجرد اشتراكى فى تلك المحاولة لهو شرف لعلماء مصر كلها .. وإن كنت أتمنى أن يثمر اشتراكى عن شىء مفيد فى معرفة مكان تلك المملكة ..

آه .. أعتذر عن ثرثرتى .. فأنا لم أوضح لكم ما هو أصل تلك المملكة ؟ حسن .. هل تعرفون « جورناكوف » ؟ إنه ذلك القزم الشاب الذى عاش فى قريته الصغيرة فى جنوب (سيبيريا) (*) ..

تلك القرية التى تأوى شعبًا من الأقزام عدد أفراده ليس كبيرًا .. ولكنها قرية نشيطة .. تزدهر شيئًا فشيئًا .. مسالمة ..

(*) سيبيريا : مساحة شاسعة تحتل معظم شمال قارة (آسيا) .. جنوبها صحراوى وشمالها قطبى ..

يقوم قانونها على الحب والتعاون والعدل .. تقول بعض النصوص المغولية : إن زعيم القرية مات .. وخلفه (جورناكوف) لما يتصف به من ذكاء ونشاط وعقل راجح .. وفى هذا الوقت كانت شوكة المغول تقوى .. والقرية تزدهر أكثر .. فى عهد (جورناكوف) .. حتى صَعُب تسميتها بالقرية .. ففضل المغول تسميتها بمملكة (جورناكوف) ..

وتزوج (جورناكوف) وأنجب ولدًا .. لم يُذكر اسمه فى تلك النصوص .. ألم أقل لكم إن الأمر أشبه بأسطورة ؟ وعندما اقتربت جحافل المغول من شمال صحراء (الغوبى)(*) .. ساور (جورناكوف) الملك قلق بالغ .. فبعث ابنه المراهق على رأس مجموعة من الأقزام قوامه عشرة لتقصّى أمر اقتراب المغول .. وعندما تأخر الابن عن موعد العودة .. قرر أبوه الاختفاء وشعبه عن أعين المغول .. الذين كانوا يخربون المدن والممالك وينهبون خيراتها ويسفكون دماء أهاليها ، وعلم المغول بأمر الولد .. فقاموا بقتله ومن معه .. ولكن الأب لم يعرف ..

وتنتهى تلك النصوص بأن المغول لم يجدوا أى أثر لتلك المملكة ، ولكن العلماء نقّبوا عنها ووجدوا ذلك اللوح الخشبى

(*) الغوبى : كبرى الصحراوات الآسيوية جميعًا .. ومعنى اسمها (الصحراء العظيمة) .. وهى تمتد مسافة تقرب من الألفى كيلو متر ..

المغروس ، ويبرز منه عدة إشارات للاتجاهات الثمانية(*) .. وبعض الرسوم غير المفهومة عليه .. وتلك العلامات ـ فى الغالب ـ قد وضعها الملك (جورناكوف) حتى يستدل ابنه على موقع المملكة الجديد عند العودة .. هذه هى حكاية تلك المملكة .. فهل وصلتم إلى شىء ؟

★ ★ ★

دعونا من تلك النصوص الغريبة .. إن الهاتف يعلو صراخه مّن أجل أن أرفع سماعته .. وأتكلم لاهثًا من جرّاء التمرين :

ـ آلو .. من ؟ أهلاً .. حسن .. حسن .. أنا منتظر ؟

وضعت سماعة الهاتف .. وجاءنى الخادم يسألنى هل أحتاج إليه فى شىء ؟

فقلت له فى إجهاد :

ـ نعم .. قم بتجهيز الحمّام .. من فضلك ..

ـ أمرك .. وسوف أعدّ لك الإفطار قبيل خروجك منه ..

ـ أنت تفهمنى بسرعة .. برغم أننى لم أمكث هنا غير يومين ..

ـ شكرًا .. سيدى ..

(★) الاتجاهات الثمانية : الشرق ـ الغرب ـ الشمال ـ الجنوب ـ الشمال الشرقى ـ الشمال الغربى ـ الجنوب الشرقى ـ الجنوب الغربى .

ثم ذهب .. وتركنى أفكر فى ذلك الميعاد .. لقد اتصلت (ناتاشا) بى الآن .. تؤكد ميعادنا .. آه .. نسيت مرة أخرى أن أخبرك بأنى تشرّفت بحضور حفل عيد ميلادها الثانى والعشرين أمس .. فى بيت أبيها الدكتور (ميشيل ميلكوف) خبير الآثار الروسى .. وحضر الحفل أعظم الشخصيات وعلى رأسهم وزير الثقافة .. الذى اقترح مصاحبة (ناتاشا) لى فى أثناء مشاهدتى معالم (موسكو) .. وقد أصرّ على ذلك والدها الدكتور (ميشيل) .. محاولاً بذلك أن يجعلنى أنسى ما بدر منه أمس فى أثناء الحفل ..

لقد أخذ يُحطّ منّى ومن مستواى العلمى .. وأن رحلتى فى البرازيل يمكن أن ينجزها من هو أقل منّى خبرة .. وأنه يندهش بأن هناك خبراء آثار مصريين .. وأنه أيضًا لم يوافق على موقف الوزير من دعوتى ..

لم أردّ عليه .. لأسباب كثيرة .. أهمها أن أعمالى تتحدث عنّى .. واكتفيت بتذكيره أنه كان مساعد الدكتور (كمال) فى إحدى الرحلات الاستكشافية .. فلم ينبس ببنت شفة ..

* * *

تدثّرت بجبل من الملابس الثقيلة .. حتى أبقى على ثبات درجة حرارة جسدى .. البخار الهارب من أنفى يتكثف عند ملامسة هواء الشارع البارد .. فأبدو كأنى قطار قديم يعمل بالفحم ، والآن .. أقف أمام بوابة الفيلاّ أنتظر ظهور سيارة (ناتاشا) ..

و (ناتاشا) فتاة رقيقة .. مهذبة .. مثقفة .. أحب سماعها وهى تتكلم الإنجليزية .. تدرس الجغرافيا الطبيعية .. وهى بالطبع متفوقة .. أخبرتنى عن عشقها لحضارة الفراعنة .. ولطالما قرأت كثيرًا عن هذه الحضارة ..

أف .. إن هذا « الزعبوط » يضايقنى .. فأنا لم أتعوّد عليه بعد .. الحمد لله على أن (مصر) ليس بها هذا البرد القارس .. إن درجة الحرارة تكاد تصل إلى عشر درجات تحت الصفر .. ثم إن أنفى قد بدأ فى التلون باللون الوردى .. أشعر بأنه عندما تأتى (ناتاشا) ـ التى تأخرت عن ميعادها ـ ستجدنى مثل « مهرّج السيرك » ..

أخيرًا .. خيال سيارتها يظهر تدريجيًا .. ويقترب منّى .. وأنا ـ بحسن نيّة ـ أقترب منه .. ولكن السيارة تتخطانى فى سرعة ..

ما هذا ؟ يبدو أنها ليست سيارة (ناتاشا) .. آه .. الانتظار .. أكره الانتظار .. ولكنى لا أكره من أنتظرها .. ها هى ذى قد جاءت ..

ـ آسفة دكتور (شريف) .. إن الجليد يعوق حركة المرور ..

ـ لا عليك ..

★ ★ ★

وبينما نحن فى طريقنا إلى قلب (موسكو) .. كانت السيارة تنطلق بسرعة رهيبة .. والجليد المزاح على جانبى الطريق ـ بفعل كاسحات الثلج ـ يمر بجوارنا بنفس السرعة .. قالت :

ـ علمت أنها أول مرة تزور فيها روسيا ؟

ـ هذا صحيح ..

ـ سوف أريك أماكن لن تنساها ..

ـ أتمنى ذلك ..

ـ اعتمد علىّ ..

★ ★ ★

والآن .. نقف وسط الميدان الأحمر .. وسط ساحة السبعين ألف متر المرصوفة بالأحجار السوداء والرمادية .. حيث أشعر بأننى لو كنت محلقًا فوق (موسكو) لوجدتها غارقة فى بحر من التلال الخضر وغابات الصنوبر ..

لقد صمّمت على أن أبتاع اثنين من الآيس كريم ـ صدق أو لا تصدق فى هذا البرد ـ لى ولـ (ناتاشا) .. وبرغم أنه كانت ترى فىّ صورة (مينا) موحد القطرين .. إلا أننى لم أعبأ بنظراتها .. فقد كنت مشغولاً فى مشاهدة (الكريملين) بأبراج أسواره السامقة والقباب الذهبية للكاتدرائيات وراءها ..

الميدان الأحمر ، أجمل ميادين العالم ، كما وصفه الرئيس الأمريكى رونالد ريجان عندما زار (موسكو) ، حقًا إن (موسكو) بديعة ..

وبينما أنا أبحر فى هذه الروعة سمعت صوت (ناتاشا) الرقيق :

ـ هناك .. ضريح (لينين)(*) ..

التفتّ إلى يمينى أرى هذا الضريح المقدود من الجرانيت الأحمر الداكن وصخور اللابراوريت السوداء .. ثم صوت (ناتاشا) :

ـ لم يعد هناك ذلك الطابور اللانهائى لطالبى الزيارة .. والراغبين فى إلقاء نظرة على جثمان (لينين) المحنط داخل تابوت الكريستال مفرّغ الهواء هناك ..

ـ لقد ذهب بريق الشيوعية منذ زمن .. فماذا تنتظرين ؟

ـ هيا معى ..

ـ أين ؟ إن هذا هو سادس مكان نزوره ..

(*) لينين : مؤسس الشيوعية فى روسيا ..

ـ هناك ..

اتجهت معها حيث أشارت .. فكان تحت أحد أبراج سور (الكريملين) .. ثم رفعت ذراعيها مشيرة إليه .. سكتت برهة .. بعدها بدأت تتكلم وصوتها يملؤه الحنين :

ـ هذا هو برج (سباسكى) أى (المنقذ) والذى غدا رمزًا شهيرًا الآن .. يرجع تاريخ بنائه إلى عام واحد وأربعين ، وقد كان مخصصًا لمرور القيصر والسفراء الأجانب ، وكان محرمًا المرور تحته إلا بعد خلع القبعات وأغطية الرءوس ، حتى لو كانت الحرارة ثلاثين تحت الصفر ..

ـ وتلك الساعات ..

ـ دقات تلك الساعات يصنعها عشرة أجراس هائلة تشغل ثلاثة من طوابق البرج العشرة ..

كنت أنظر إلى تلك الساعات فى دهشة ، فقطر كل منها يبلغ ستة أمتار ، وطول كل رقم على مينائها قرابة ثلاثة أرباع المتر ، جعلنى ذلك أنظر فى ساعتى ، لقد كانت الثانية بعد الظهر .. فقالت (ناتاشا) :

ـ هل تشعر بالجوع ؟

ـ ....

ـ حسن .. سنذهب إلى أفخم مطعم فى (موسكو) ..

ـ ولكن .. على نفقتى ..

ـ أرجو ألاَّ تندم ..

★ ★ ★

الساعة تقترب من الحادية عشرة مساءً .. والسيارة تقترب من الفيلا .. وتقف أمام بوابتها .. أخذت نفسًا عميقًا .. ثم التفتَ ناحية (ناتاشا) التى ابتسمت .. وقلت لها :

ـ إن بلادكم رائعة .. وأروع ما فيها .. أن أشاهدها بصحبتك ..

ـ لولا أنك ستنشغل فى الأيام القادمة .. لكُنّا قضينا معًا وقتًا أكثر ..

ـ إنها ليست آخر زيارة لـ (روسيا) .. اطمئنى .. إلى اللقاء غدًا ..

ـ إلى اللقاء ..

★ ★ ★

مددت جسدى على الفراش .. وأضأت الأباجورة الجانبية ولم أنس طبعًا تشغيل المدفأة الكهربائية ..

أمسكت بكتاب بين يدىّ .. وفتحته على صفحة معينة .. لأكمل قراءتها .. فهذا الكتاب سيفيدنى كثيرًا فى رحلة الغد .. حيث إن عنوان الكتاب « الجليد .. المتعة والخطر » .

★ ★ ★

٢ ـ العـــاصفة ..

الساعة التاسعة صباحًا .. وغرفة رئيس هيئة الآثار برغم صغرها كانت جدّ باردة .. مثل الـ (ديب فريزر) .. ولولا تلك المناقشة .. لكانت أسنانى تعزف الآن سيمفونية الـ (طكطكة) المعهودة .. فالخوض فى غمار المناقشات يشغلك عن التفكير فى جسدك المرتعد من البرد .. وغاز ثانى أكسيد الكربون فى زفير الحاضرين .. ودخان غليون دكتور (ميشيل) يزيد حرارة الجو .. وهذا أفضل ..

حيانى رئيس الهيئة بقوله :

ـ أهلا بك فى بلدك الثانى يا دكتور (شريف) ..

ـ شكرًا سيدى الرئيس على هذا الترحيب الشديد منذ أن جئت (روسيا) ..

قال الوزير :

ـ أرجو ألاّ تكون منزعجًا بسفرك هذا يا دكتور ..

ـ لا .. لقد كنت أتمنى تلك الزيارة منذ أن تلقيت دعوة سيادتك فى القاهرة ..

قال د. (ميشيل) :

ـ ها قد تحققت أمنيتك سريعًا .. أتمنى أن تتحقق أمنيتى كذلك ..

كظمت غيظى من الدكتور (ميشيل) .. وابتسمت فى تحدّ ..

ـ أرجو أن تكون أمنية دكتور (ميشيل) أن نجد حل اللغز معًا .

أخرج الدكتور (ميشيل) الغليون من فمه فور سماع كلامى .. وضغط على أسنانه .. فلما رأت (ناتاشا) ذلك .. فضلت أن تتدخل ..

ـ أشعر بأنها ستكون رحلة ناجحة .. وإيجابية النتائج ..

قال الوزير :

ـ وهل ستتحملين المعيشة وسط جبال الجليد والعواصف ؟

ـ هذه الرحلة ستكون درسًا عمليًا .. فهو من صميم دراستى ..

ـ ولكن آنسة (ناتاشا) .. إنهما يومان فقطْ .. فلا تحمّلى نفسك عبء السفر والعودة ..

رد د. (ميشيل) :

ـ ولكنى موافق على سفرها .. بل وأصمّم ..

قلت فى نفسى : يالك من معاند .. أتوافق على تعذيب ابنتك من أجل مواجهتى فقط ؟ لا أعرف لماذا يحاول احتقارى دائمًا ، برغم أننى أكنّ له كل احترام وتقدير ؟ وإذا كان يظن أن كلامه هذا سيؤثر فى عزيمتى وحماستى .. فقد أخطأ ..

قال رئيس الهيئة :

ـ بعد حوالى الساعة ستصل السيارة التى ستقلكم إلى المطار .. وفى أثناء تلك الساعة .. سنذهب معًا إلى متحف (موسكو) .. حتى أعرض عليكم النماذج الأصلية للخرائط والنصوص ، التى أتمنى أن تجدوا من خلالها شيئًا جديدًا يدلّنا على موقع تلك المملكة ..

★ ★ ★

وفى ساحة خاصة بمطار (موسكو) كانت تنتظرنا تلك الطائرة الصغيرة .. حيث سبقنا الطيار ومساعده .. لحقت بهما برغم ثقل الحقائب التى أدفعها على تلك العربة الصغيرة .. حقيبتى وحقائب الدكتور وابنته .. وبالطبع أبت كرامتى أن أجعل (ناتاشا) تساعدنى فى دفعها .. إنها فتاة رقيقة .. رقيقة جدًا .. حتى لو أنها استطاعت دفع العربة .. لنقص وزنها إلى النصف .. أما دكتور (ميشيل) فاكتفى بمشاهدتى ضاحكًا فى نفسه .. يتبختر فى تعالٍ وكبرياء ..

فضّلت (ناتاشا) ـ بالطبع ـ أن تجلس بجوار أبيها حتى لا يغضب .. وجلست أنا فى المقعد المقابل أنظر إلى النافذة .. التى من أول وهلة تبدو كأنها بيضاء .. إلا أن سطح الزجاج قد تشبع ببخار الماء المتكثف عليه ..

قالت (ناتاشا) :

ـ فلتخلع معطفك يا دكتور (شريف) .. الجو داخل الطائرة ليس باردًا كما فى الخارج ..

ـ آه .. نعم .. ذلك أفضل ..

وقفت وخلعت معطفى لأضعه بجوارى ثم جلست مرة أخرى متبادلاً ابتسامة بسيطة مع (ناتاشا) .. وعندما نظرت إلى دكتور (ميشيل) .. ذهبت ابتسامتى سريعًا .. لقد وجدته ينظر لى بعين حاقدة .. وكأنه يقول فى نفسه : « كيف يأتون بهذا الوغد إلى هنا .. ألا تكفى خبرتى العلمية لحل تلك المشكلة » ؟!

نظرت إليه نفس النظرة الحاقدة .. وكأنى أرد عليه « افعل ما تشاء .. لن تستطيع أن تهز كيانى بتلك النظرات المريضة » ..

بدأت الطائرة تتحرك .. فتذكرنا جميعًا ربط الأحزمة .. ونظرت خلال النافذة مرة أخرى .. فوجدت ممر الطيران ذا العلامات البيضاء يجرى بسرعة رهيبة .. وبعد اهتزازة خفيفة .. بدأ الممر يبتعد ..

كل هذا أراه بصعوبة بسبب ذلك البخار المكثف .. وعندما عدت بنظرى إلى دكتور (ميشيل) وجدته مشغولاً بإشعال غليونه .. الآن أستطيع أن أتبيَّن ملامحه جيدًا .. ذلك الوجه الطويل .. والشعر الناعم الأبيض المنسدل على جبهة عريضة .. تعلو حاجبيه الكثيفين .. وتلك العيون الضيقة .. وهذا الأنف الأقنى .. مع شارب رفيع يتصل بلحيته .. فيحيطون الفم الصغير بدائرة بيضاء غريبة الشكل .. و ..

رفع عينيه نحوى .. فاستدرت ونظرت مرة أخرى إلى النافذة أتابع تلك الجبال الجليدية .. التى تعلوها قمم مدببة .. تخترق السحب .. ولكنى رأيت شيئًا غريبًا أيضًا .. أرى نقطًا بيضاء تتأرجح فى الهواء .. لم تظهر إلاَّ الآن .. ترى .. ما هى ؟

★ ★ ★

برغم أن الطيران الحديث قد حلَّ مشكلة « الترانزيت » .. وأنه توجد طائرات تسافر آلاف الكيلومترات بدون توقف .. إلاَّ أن هذه الطائرة الخاصة سوف تذهب بنا إلى مدينة (سفردلوفسك) أولاً .. ثم بعد فترة راحة .. نسافر إلى (أومسك) حيث القاعدة الاستكشافية .. ونحن نمر الآن فوق نهر (الفولجا) .. وتلك النقاط البيضاء تزداد فى العدد والحجم ..

ـ (ناتاشا) .. ما تلك النقاط البيضاء ؟ أهو جليد ؟

ـ نعم .. إنه يتساقط باستمرار .. لا تقلق ..

عدت أرمق تلك الندف الثلجية .. أنا لا أخاف من الجليد .. ولكن .. أشعر بأن ظهوره الآن .. الآن بالذات .. يثير عندى الشكوك .. بأن هناك مشكلة قادمة .. أرجو ألا أكون محقًا فى شكوكى ..

لقد مرت أكثر من سبع ساعات .. ولم يستطع الأب أو ابنته مقاومة لذة النوم .. فدخلا فى سبات عميق .. أما أنا فظللت أرقب تلك الثلوج المتأرجحة .. ولكنى أراها بصعوبة .. إن حجمها يزداد .. فلأقترب من النافذة أكثر .. وأكثر .. وأكثر .. حتى أراها جيدًا ..

« طك » .. إنه صوت إحدى قطع الثلج المتساقطة والتى ارتطمت بالنافذة .. فجعلتنى أبتعد فى سرعة .. حتى أستعيد معدل تنفسى الطبيعى .. بينما جاء صوت الطيار عبر الميكروفون :

ـ لقد اقتربنا .. دقائق ونكون فى (سفردلوفسك) ..

بعد هذه العبارة مباشرة .. اهتزت الطائرة اهتزازًا عنيفًا .. جعلنى أحلّ حزام الأمان .. وأذهب إلى غرفة قيادة الطائرة ..

ـ ماذا هناك ؟ هل الأحوال الجوية لا تساعد على التحليق ؟

اهتزازة عنيفة أخرى .. مُدَّتها أطول من السابقة .. جعلتنى أفقد توازنى وأقع .. لولا أنى تشبثت بمقعد الطيار .. الذى التفت إلى مساعده فى ذعر ..

التفت لى قائد الطائرة .. وهو يبتسم قائلاً :

ـ لا شىء .. مجرد مطب هوائى ..

اهتزازة عنيفة أخرى .. مُدَّتها أطول من السابقة .. جعلتنى أفقد توازنى وأقع .. لولا أنى تشبثت بمقعد الطيار .. الذى التفت إلى مساعده فى ذعر .. وقال له :

ـ يبدو أن هناك عاصفة قادمة .. قم بتجهيز المظلات ..

ـ عاصفة !!

★ ★ ★

وقفت أنظر إلى الطيار فى ذهول .. إن هذا ما كنت أتوقعه .. حدوث شىء ما .. غير سارّ بالطبع .. وبمجرد ذهاب الملاّح(*) ليقوم ـ كما سمعتم ـ بتجهيز المظلات .. دخل غرفة القيادة كل من دكتور (ميشيل) وابنته .. بوجهين متسائلين .. وعندما أردت أن أخبرهما .. قامت الطائرة نيابة عنى بذلك .. فقد اهتزّت فى عنف .. عدة مرات .. ووقع الدكتور ـ لحسن الحظ ـ على مقعد الملاّح .. فحفظ توازنه ثم قبض بيديه على أحد أذرع القيادة يتشبث به .. أما (ناتاشا) فقد أمسكت بملابسى .. التى كادت تتمزق .. وصوت الطيَّار يرتفع صائحًا :

ـ ماذا فعلت يا دكتور (ميشيل) ؟

(*) الملاّح : مساعد قائد الطائرة ..

ـ لم أفعل شيئًا ..

ـ أوه .. إن المحرك الأيسر لا يعمل ..

ـ ماذا !!

وبيد الطيار اليمنى حاول أن يعيد الذراع مكانه .. فنجحت محاولته .. ولكنه عاد فصرخ :

ـ إنه لا يعمل .. لا يعمل .. فقد فقدت السيطرة على الطائرة ..

حينئذ عاد الملاَّح مسرعًا .. وبصوت يملؤه الهلع .. قال :

ـ سيِّدى .. ليس هناك غير أربع مظلات ..

★ ★ ★

لا أستطيع أن أصف لكم مقدار الرعب الذى أصاب كلاً من الدكتور (ميشيل) وابنته ، التى ذهب لون وجهها الوردى وحلّ محله لون أصفر باهت .. وبعد محاولات وآهات منّى ومن الطيار .. وافقا على هذه المخاطرة .. أن يقفزا بالمظلات لأول مرة فى حياتهما .. ولن يكون ذلك سهلاً أبدًا .. وبالفعل ارتدينا تلك المظلات .. لكنى سألت الطيار :

ـ ولكن .. ليس هناك غير أربع مظلات ..

ـ إنه خطئى أنا .. لقد نسيت إخبار مساعدى بأن الآنسة (ناتاشا) ستسافر معنا .. لا تقلقوا .. سأقفز متشبثًا بالمَلاح ..

ثم اتجه نحو باب الطائرة .. وفتحه .. فدخل الهواء المحمل بالثلوج يدفعنا للوراء .. وصوت العواصف يشترك مع صياح الطيار .. الذى بدا وكأنه يحرك شفتيه فقط قائلاً :

ـ هيا .. فلتقفزوا ..

تراجع الدكتور (ميشيل) .. وفعلت (ناتاشا) نفس الشىء .. وهذا طبيعى .. الشعور بأنك لا تريد الموت أول شخص .. فتلكن الثانى .. أو الثالث .. أو ـ وهذا أفضل ـ الأخير .. الطائرة تهتز .. وصوت الطيار يكرر :

ـ هيَّا ..

تقدمت أنا .. متذكرًا عبارة « كلّنا لها » .. أقترب من باب الطائرة .. لكنى تذكرت ـ ولا تضحكوا ـ حقيبة ملابسى .. فقلت فى حياء :

ـ حقيبة الملابس .. سأذهب لأحضرها .. فقال الطيار :

ـ ماذا ؟ هل تمزح ؟ هيا اقفز ..

رجعت خطوتين للخلف .. وقبل أن أقفز .. سألت الطيار :

ـ أخبرنى .. أفتح المظلة بعد أن أعدّ حتى .. حتى .. كم ؟

ـ خمسين .. لا تنس مرة أخرى ..

ـ حاضر ..

تلوت الشهادة .. ثم قفزت ..

★ ★ ★

« ثمانية وأربعون .. تسعة وأربعون .. خمسون »

وبعد أن انتهيت من العد .. فتحت المظلة .. التى انتفخت فى ثوان معدودة .. ثم بدأت فى السقوط بسرعة أقل .. ولحسن الحظ .. كانت قوة العاصفة تقل كلما أبتعد عن مكان الطائرة .. ومازلت لا أرى شيئًا تحتى .. غير اللون الأبيض .. الذى سرعان ما انقشع مخلفًا وراءه منظرًا يريح النفس .. إنها الأرض ..

ما زلت أشعر بأننى بعيد عن الأرض .. فقدماى لا تقفان على شىء غير الهواء .. صحيح أنها أول مرة لى أن أقفز بمظلة .. إلا أنه أمر ممتع حقًا .. كم أتمنى أن تحل رياضة القفز بالمظلات محل تأجير الدرّاجات فى القناطر الخيرية يومًا ما .

الآن أقترب أكثر وأكثر .. عشرة أمتار .. خمسة أمتار .. ثم .. « هوب » .. وبرغم أننى تدحرجت عدة مرات .. إلا أن كل جزء فى جسدى لا يزال سليمًا .. خلعت أربطة المظلة .. ثم وقفت أنظر فى كل اتجاه .. حتى إلى السماء .. أين الباقون ؟

الضباب يغلف المنطقة بشكل رهيب .. لا أرى أى شىء .. ولا أسمع أى شىء .. ثم « بوم .. طراخ » .. نظرت لأعلى فوجدت تلك الكتلة الملتهبة التى تسقط من السماء متناثرة أجزاؤها فى كل مكان .. آه .. لابد أن الطائرة قد اصطدمت بأحد الجبال الجليدية .. وأتمنى أن تكون قد انفجرت خالية من أحد .. لكن .. مسامعى تلتقط الآن صوتًا آخر .. إنه صوت أقدام آتية .. وبالأحرى .. صوت أقدام تغوص فى الثلوج .. نظرت نحو مكان الصوت .. والضباب يختفى شيئًا فشيئًا .. ليظهر الطيار ومساعده .. ماذا ؟ أين الدكتور و (ناتاشا) ؟

★ ★ ★

اقترب الطيار ومساعده يجرّان خلفهما المظلة .. فسألتهما :

ـ أين دكتور (ميشيل) وابنته ؟

فقال الطيار :

ـ لقد قفزا قبل أن نقفز نحن ..

ـ ولكنكم أتيتم قبلهما .. ماذا يعنى ذلك ؟

أجاب الملاح :

ـ لا تقلق يا دكتور .. لحظات وسوف نجدهم .. الجو بدأ يتحسن .. والضباب ينقشع ..

كانت المنطقة التى قفزنا إليها .. مليئة بالجبال .. وبعض تجمعات الأشجار .. مرّت لحظات قبل أن يساورنى القلق مرة أخرى .. وقررت أن أناديهما .. فأحطت فمى بكفى مثل بوق الميكروفون .. وبأقصى ما يمكننى .. صحت .. فى عدة اتجاهات :

ـ دكتور (ميشيل) .. (ناتاشا) ..

فسمعت صدى نداءاتى بعد ثوان .. ولما شعر الطيار ومساعده بأن محاولاتى ليست بسيّطة .. اشتركا معى فى النداء :

ـ دكتور (ميشيل) .. (ناتاشا) ..

وفجأة سمعنا صوتًا خافتًا يقول :

ـ أنا هنا ..

اتجهنا سريعًا إلى مكان الصوت .. فوجدنا الدكتور وقد فشل فى حلّ أحزمة مظلته .. وعندما رآنا تجهّم وجهه .. ثم قال :

ـ (ناتاشا) .. أين (ناتاشا) ؟

★ ★ ★

لقد مشينا فى عدة اتجاهات .. ننادى .. ونسمع صدى أصواتنا .. إلى أن سمعنا صوتًا يأتى من هذه الجهة .. التى

تحتوى على بعض الأشجار ، وقد تجمدت غصونها .. وعندما ذهبنا إلى هناك .. ودققنا النظر .. وجدنا ما لم نكن نتوقعه ..

إنها (ناتاشا) .. معلقة مع مظلتها على أحد أغصان شجرة ما .. كانت بلا حراك .. باهتة اللون ..

وقف الطيار ـ بحركة بهلوانية ـ فوق أكتافى .. حتى يمكنه حلّ أحزمة مظلة (ناتاشا) .. بينما استعد والدها والملاّح بأياديهما المفرودة لاستقبالها عندما تقع .. وبالفعل .. أراحها أبوها على الثلوج .. فعاد تورد وجهها .. وانتظمت أنفاسها مرة أخرى .. فقلت لها :

ـ حمدًا لله على سلامتك يا آنستى ..

★ ★ ★

بعد سير دام أكثر من ساعتين وسط الثلوج .. لاحت لنا أمارات (سفردلوفسك) وأدخنة مصانعها .. تتصاعد فى السماء ، وترسم لنا عبارة « أهلاً بكم » .. ولحسن الحظ .. كان الطيار يحمل معه بوصلة صغيرة قامت بدور الدليل ..

توقفنا أمام مبنى رئاسة المدينة .. ثم صعدناه .. والتقينا مع عمدة (سفردلوفسك) .. الذى رحب بنا .. وتفهم موقفنا .. وبعد عدة اتصالات هاتفية .. استطاع أن يوفر لنا طائرة عمودية

تقلّنا إلى (أومسك) حيث القاعدة الاستكشافية .. وبالفعل .. وصلنا إلى (أومسك) حوالى الساعة العاشرة مساءً .. كنا مُنهكين .. لكننا أحياء ..

القاعدة الاستكشافية .. تقع فى الجانب الشمالى للمدينة ..

وتتألف من ثلاثة مبان متماثلة تمامًا .. بيضاء اللون .. وكل منها يتكون من أربعة طوابق .. والمبانى محاطة بحديقة واسعة لم نتبين جمالها فى الظلام .. ثم سياج عال يطوّق القاعدة .. إلا من ذلك الباب الحديدى الضخم الذى يُفتح إليكترونيًا .. ويقف على جانبيه جنديّان شاكيا السلاح .. فأكسبا القاعدة مظهرًا مهيبًا .. وبدون أن ندخل فى تفاصيل أخرى .. تعرفونها بالطبع .. تركنا البحث فى مشكلة اختفاء مملكة (جورناكوف) إلى الغد .. حتى ننعم ببعض الراحة قبل مواجهة أى شىء آخر ..

★ ★ ★

٣ـ الغمـــوض ..

« دعونا نعد بالزمن إلى الوراء قليلاً .. بضع مئات من السنين .. حتى نرى أعظم حدث فى تلك الحقبة .. إنه مولد قائد .. اشتهر بحنكته .. وجبروته ..

هذا القائد عُرف فيما بعد باسم (جنكيزخان) لكن .. اسمه الحقيقى (تيموجين) ، وُلد فى منغوليا عام ١١٥٥ م .. بمنطقة تدعى (دولون بولداق)(*) ..

ونشأ (جنكيزخان) وسط قبيلة همجية .. لها عادات وطباع تثير الاشمئزاز ، فقد كانوا يحرّمون الاستحمام وغسل الثياب فى المياه الجارية ، ويعذّبون الحيوانات .. »

★ ★ ★

ظُهر اليوم الثانى فى القاعدة ..

- « لقد تعبت حقًا .. »

قالت تلك العبارة (ناتاشا) بعد أن رافقتنا طوال ساعتين تقريبًا ونحن نتفقد إمكانيات القاعدة : معاملها .. مخازنها ..

(*) (دولون بولداق) منطقة بوسط آسيا أصبحت تحت السيطرة الروسية فيما بعد .

أجهزتها .. مراصدها .. فقال (ماردينى) ـ أحد العاملين فى القاعدة ـ فى خجل :

ـ آسف آنسة (ناتاشا) .. لقد فضّلت أن تعلموا كل شىء قبل الخوض فى البحث عن المملكة ..

ـ لا عليك ..

وقال د. (ميشيل) :

ـ شكرًا يا (ماردينى) .. لقد أزعجناك كثيرًا ..

ـ كيف تقول ذلك يا دكتور .. أنا فى خدمتكم دائمًا ..

ثم دعانا إلى الهبوط من مبنى البحوث الجيولوجية .. إنه آخر ما تفقدناه .. وفى ساحة خلفية له .. كانت تقف خمس عربات مصفحة سوداء اللون .. اقتربنا من إحداها .. ثم سمعنا صوت (ماردينى) المهذّب :

ـ تفضلوا .. لن نتأخّر كثيرًا ..

ـ إلى أين ؟

ـ إلى موقع المملكة !

اندهشت لكلام المرشد (ماردينى) .. كيف يقول « موقع المملكة » فقط ويصمت ؟ المفترض أن يقول : « موقع المملكة القديم » .

* * *

تحركت السيارة فى خفة .. وعبرت البوابة الحديدية .. ثم انطلقت مسرعة بين الثلوج .. تأملت السيارة من الداخل .. لقد كانت مجهّزة على أعلى مستوى .. أجهزة علمية .. رادارات .. أسلحة .. زجاج مضاد للرصاص .. ثلاجة لحفظ المأكولات .. دائرة تليفزيونية كاملة .. إنها ليست سيارة .. إنها نموذج مصغّر من القاعدة ..

وصلنا .. ها هو ذا المكان .. وادٍ ضيق بين عدة جبال .. لا تتعدّى مساحته نصف مساحة ملعب الكرة .. يحيط بتلك المساحة سور منخفض .. تعلو أحد جوانبه لافتة .. كُتب عليها « منطقة عمل .. مملكة (جورناكوف) » .. إنه لأمر مضحك حقًا .. مازالوا يضعون تلك اللافتة ..

قالت (ناتاشا) :

ـ ولكن أين مكان الحفر ؟!

ـ لقد تم ردمه مرة أخرى يا (ناتاشا) ..

فعلق ماردينى :

ـ هذا صحيح يا دكتور (شريف) .. لقد عمّ الفشل كل علماء الآثار الذين حاولوا البحث عن تلك المملكة ..

قال د. (ميشيل) :

ـ ذلك لأنه لا توجد مملكة فى الأصل .. هذا كان رأيى .. ولم يصدقنى أحد ..

ـ وتلك النصوص المغولية ؟

ـ كاذبة ..

ـ لقد صدقت فى نصوص أخرى .. فقط تلك المملكة لم نتحقق من وجودها بعد ..

ـ أحلام اليقظة ..

ـ ليست أحلامًا .. إنها حقيقة ..

ـ لا توجد أى آثار مادية تدل على وجود تلك المملكة ..

ـ يوجد .. اللوح الخشبى ..

ـ وما أدراك أنه ليس خدعة من المغول ..

ـ لا أشعر بذلك ..

ـ لا تشعر ؟ ها ها ..

ـ كل ما فى الأمر أن المغول لم يستطيعوا حل لغز الرسوم المنقوشة فوق اللوح ..

ـ وأنت .. هل تستطيع ؟

ـ أتمنى ذلك ..

ـ حسن .. كل صور الرسومات موجودة فى القاعدة ..

فلنذهب ونر عبقريتك ..

ـ موافق .. ولكن بلا سخرية ..

★ ★ ★

عدنا للقاعدة .. واجتمعنا جميعًا فى قسم الخرائط والصور لنفحص كل شىء يتعلق بتاريخ المملكة المفقودة .. صور الخرائط والنصوص المغولية .. التى رسمها المغول بأيديهم .. بالإضافة إلى صورة ذلك اللوح الخشبى .. الذى ثُبتت فوقه ثمانية ألواح صغيرة على مسافات مختلفة .. هذه الألواح الصغيرة تشير إلى الاتجاهات الثمانية .. وقد وجدها المغول فى موقع المملكة ـ الذى جئنا منه توًا ـ بدلاً من المملكة نفسها .. لقد قالوا فى نصوصهم : إنها كانت تعج بالخيرات .. والمحاصيل .. والحيوانات .. غير أهلها ..

هؤلاء الأقزام العباقرة .. لقد ابتكروا أشياء كثيرة .. لم يتكلم عنها المغول .. لذا .. بدا أمر تلك المملكة كأنها أشبه بصورة فوتوغرافية باهتة .. صحيح أنها صورة .. إلا أنها لا توضح التفاصيل المهمة ..

جلسنا طويلاً نفحص تلك الصور .. ووصلنا إلى لا شىء .. حيث إنها رسوم بدائية .. غريبة .. لا يمكن فك شفرتها ..

ولكن .. أنا لا أعرف المستحيل .. فقديمًا كانوا يظنون أن الوقوف على سطح القمر من الأساطير الإغريقية .. ولكن الإنسان لا يعرف الأساطير .. فاستطاع الوقوف على سطح القمر .. وها نحن أولاء .. أمام تلك الطلاسم .. لا يمكننا الاستسلام .. وإذا استسلم الباقون .. فلن أستسلم أنا ..

★ ★ ★

« وبعد أن كان أجداد (جنكيز خان) يدفعون الخراج لأباطرة الصين الشمالية ، استطاع أبوه (يسوكاى بهادر) أن يوسع نفوذه ، ويقف فى مواجهة إمبراطور الصين ، وبذا ، رسم لابنه (جنكيز خان) الخطة لتشييد دولته على أساس محكم » .

★ ★ ★

المساء .. فضلت الانفراد بنفسى قليلاً مع تلك الصور .. إنها آخر فرصة لى .. سأعود بعد غد إلى (موسكو) .. أى أن هذا بمثابة دافع قوى لى ..

أرجو ألا تكون (ناتاشا) قد أخذت منى موقفًا عندما رفضت دعوتها لتناول كوب من القهوة .. والتنزُّه فى حديقة القاعدة .. أريد أن أسهر اليوم مع هذا اللغز .. لعل اللّه أن يوفقنى إلى تفسيره .. كليًا أو جزئيًا ..

فلنفكر معًا .. ولنفحص كل صورة جيدًا .. والآن .. أضع مجموعة الصور بجوارى على الفراش .. وقبل أن أسترخى عليه .. أدرت المذياع على موجة الـ « F M » .. فانسابت من سماعتيه موسيقى حانية .. لعلها تساعد فى تهدئة أعصابى أكثر ..

كانت سبع صور .. واحدة للخريطة التى توضح موقع المملكة .. واثنتان للنصوص التى كتبها جواسيس المغول .. وثلاث للوح الخشبى .. وواحدة لرسالة بعثها أحد قادة المغول إلى (جنكيز خان) .. بماذا أبدأ ؟

بدأت بصور النصوص .. سبعة نصوص .. وهى رسائل جواسيس المغول إلى قيادة (جنكيز خان) .. تخبرهم بمعلومات عن المملكة .. حياتها .. عاداتها .. مدى قوتها ، وهكذا .. والمعلومات المتضمّنة فيها تم حفظها عن ظهر قلب .. حاولت ـ برغم ذلك ـ أن أستخلص أى شىء جديد .. ولكن محاولتى باءت بالفشل ..

★ ★ ★

[« ولكن التقلبات التى صادفها (جنكيز خان) فى شبابه ، والتجارب والمحن التى مرّ بها فى حياته ، ومقدرته على تحمل آلام الجوع والحرمان لعدة أيام ، وعدم اهتمامه بما يصيبه من

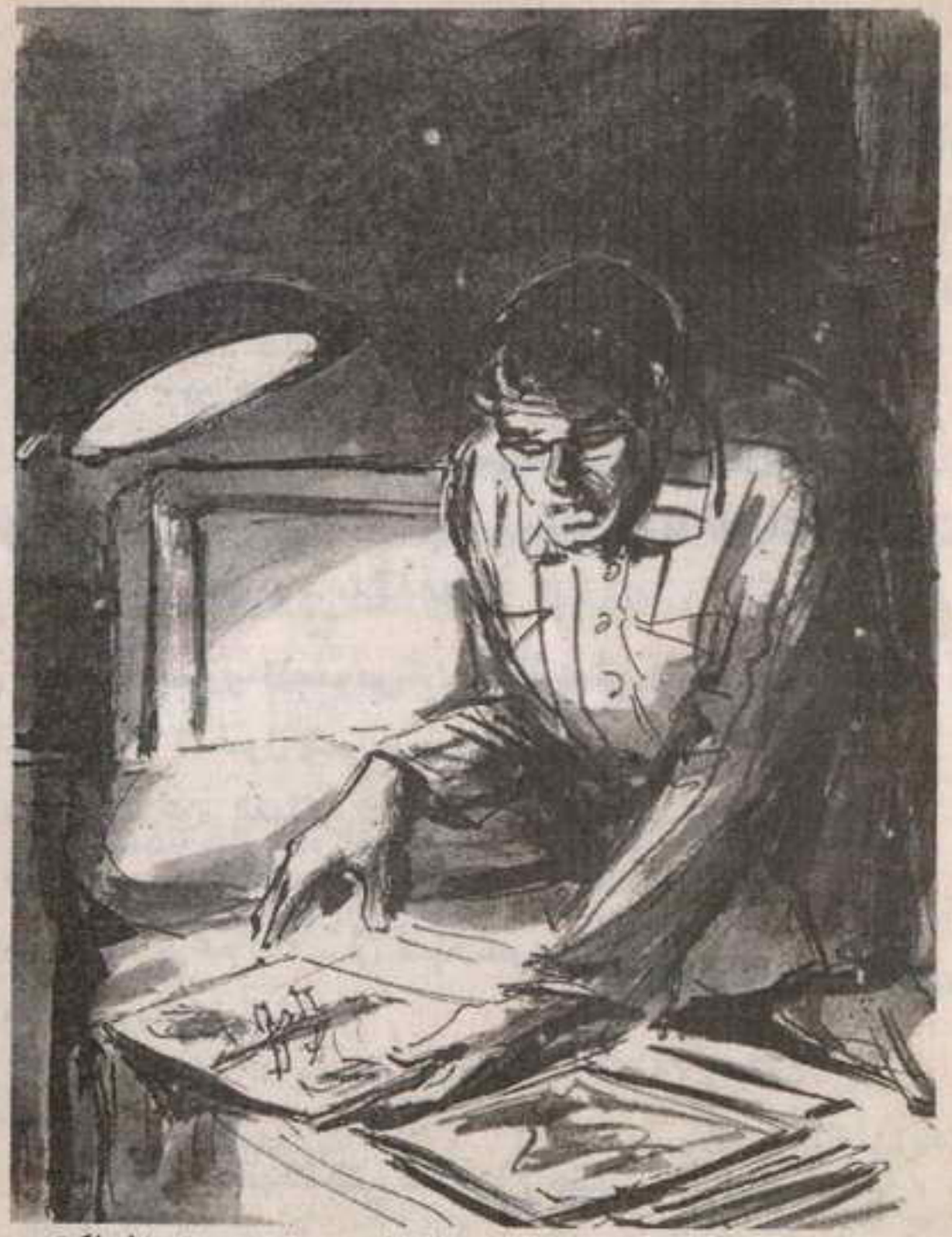

كانت سبع صور .. واحدة للخريطة التى توضح موقع المملكة ، واثنتان للنصوص التى كتبها جواسيس المغول .. وثلاث للوح الخشبى ..

جروح وآلام ، كل ذلك قد أكسبه قوة على تحمل الشدائد والصعوبات .. وصنع منه رجلاً صلبًا أدهش العالم ، سريع الحركة ، شديد المكر كالثعلب ، يجيد فن الرماية ، ويتقن المصارعة ، وقد برع فى رسم الخطط وتدبير الأمور ، حتى آمن بعقيدة راسخة تتلخص فى أن .. البقاء للأقوى .. »]

★ ★ ★

الساعة تقترب من العاشرة مساءً .. أمسكت بصور الخرائط .. التى مزّقها سيف الزمن .. أقلّبها يمينًا ويسارًا .. فلا أجد شيئًا ..

الساعة تقترب من منتصف الليل .. بقيت صور اللوح الخشبى .. تلك الإشارات من المؤكد أنها كانت خدعة للمغول .. فهى تشير إلى ثمانية اتجاهات .. فإلى أى اتجاه ذهبوا .. لقد مسحت القاعدة الاستكشافية بطائراتها (سيبيريا) كلها ولم تجد أثرًا لتلك المملكة .. أين ذهبت ؟ لا جواب ..

الغريب أنه فوق كل إشارة نفس الرسوم المنقوشة .. والتى بدورها هى لغز آخر .. وهى تتكون من ثلاثة رموز .. الرمز الأول من اليسار هو رقم ثمانية بالأرقام الهندية(*) .. والثانى مستطيل صغير .. والثالث نفس الرقم ثمانية .. ولكن حجمه

(*) الأرقام الهندية : ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ، ...

أكبر قليلاً .. ماذا يعنى ذلك .. فلأحاول ترتيب الصور حتى يمكننى فهم أى شىء .. صور الخرائط .. صورة النصوص .. ثم صور اللّوح .. أشعر بأن حلّ اللغز بين يدى ولكنى لا أراه .. وهذه مشكلة أخرى ..

لو أستطيع فهم تلك الرموز المرسومة .. لغار منّى العالم الفرنسى (شامبيليون) (*) .. رقمان متباينان فى الحجم .. ومستطيل صغير .. ولكن ضلعه العلوى ليس مستقيمًا تمامًا .. به بعض .. بل كثير من المنحنيات .. آه .. لقد تعبت .. إن الساعة تشير إلى الثانية والنصف صباحًا .. نظرت إلى السماء بعين راجية .. أتمنى أن يوفقنى اللّه إلى الحلّ .. الحلّ الذى استنفد البحث عنه كل طاقة فى خلايا مخّى ..

« أواه » .. لقد بدأت أتثاءب .. لا يمكننى المواصلة أكثر من ذلك .. وضعت الصور على الكومود .. وأطفأت النور والمذياع .. وأغمضت عينىّ .. لعلّى أجد الحلّ فى أثناء النوم ..

★ ★ ★

« صباح الخير يا (ناتاشا) .. » قلتها عند لقائى بها فى غرفة الطعام .. فأجابتنى :

(★) عالم فرنسى استطاع ترجمة اللغة الهيروغليفية والديموطيقية التى كانت موجودة على حجر (رشيد) ..

ـ صباح الخير دكتور (شريف) .

ـ أرجو ألا تكونى غاضبة منى بسبب ليلة البارحة ..

ـ لا .. لقد نسيت ذلك ..

ـ وحتى أتأكد أنك نسيت .. سوف أتناول معك الليلة القهوة فى حديقة القاعدة ..

ـ أتمنى ذلك ..

لم تكد تكمل كلماتها .. حتى دخل علينا الدكتور (ميشيل) وبصحبته (ماردينى) .. لا يزال الدكتور يرفع حاجبًا عن الآخر عندما يرانى ..

قال (ماردينى) :

ـ صباح الخير دكتور (شريف) .

ـ صباح الخير يا (ماردينى) .. صباح الخير يا دكتور ..

لم يردّ علىّ .. ونظر نحو ابنته .. يقول لها :

ـ هل نمت جيدًا يا (ناتاشا) ؟

ـ نعم يا أبى ..

ـ ماذا كنت تريدين إخبارى به أمس ؟

ـ آه .. كنت أريد عمل جولة استكشافية عن الطبيعة الجليدية المحيطة .. وأسجل ملاحظاتى .. وكنت أريد أيضًا أن يرافقنى الدكتور (شريف) .. بعد إذنك طبعًا ..

ـ لا .. سأرافقك أنا .. فقلت له :

ـ ولكن .. اليوم يا دكتور سنذهب لموقع الحفر مرة أخرى .. لعلّنا نصل لشىء .. إنه آخر يوم لنا هنا ..

ـ أنا هنا لمرافقتك فقط .. وليس فى خدمتك .. أنت مَن دعاهُ سيادة الوزير ليغمرنا بعبقريته ويفسّر اختفاء ذلك الوهم « مملكة (جورناكوف) » .. أليس كذلك ؟

صدمتنى عباراته .. يا لها من معاملة .. لماذا لا يحاول معاملتى كابن له .. حتى يمكننى أنا أن أعامله كوالد لى .. لماذا ؟

★ ★ ★

[« يُروى أن (جنكيز خان) رأى ذات ليلة فى منامه أن يديه امتدتا ، وكان يمسك سيفين فى كلتا يديه .. بحيث إن طرف أحدهما كان متصلاً بالمشرق ، وطرفه الآخر كان متصلاً بالمغرب .. فلما أصبح ، قصّ رؤياه على أمه ، فقالت له : « أنت سوف تستولى على العالم شرقه وغربه ، وسوف يصل أثر سيفك المضرج بالدماء إلى بلاد المشرق والمغرب .. »] .

★ ★ ★

ظُهر اليوم الثالث بالقاعدة .. أقف مع (ماردينى) فى منطقة الحفر ـ أو التى كانت محفورة ـ نمسحها بدقة .. حين سمعت صوت (ماردينى) يقول فى يأس :

ـ دكتور (شريف) .. أنا أتذكّر أننا عملنا فى تلك المنطقة أكثر من ثلاثة أشهر .. بلا فائدة ..

ـ أشعر يا (ماردينى) بأننى أقف فوق الحلّ .. ولكننى لا أراه ..

ـ ساورَ شعورُك هذا كثيرًا من العلماء قبلك ..

ـ انظر يا (ماردينى) إنها مساحة صغيرة تلك التى كانوا يعيشون فيها ..

ـ هذا صحيح ..

ـ وتلك الجبال المحيطة .. مؤكد أنها تحميهم من أعداء كثيرين .. وذلك إذا استثنينا المغول منهم ..

ـ ما الذى تحاول أن تصل إليه ؟

ـ وكل ذلك .. لأنهم كانوا ضعافًا .. لا يستطيعون محاربة من هو أقوى منهم .

نظر لى (ماردينى) وكأنه يقول فى نفسه : « لقد جُنّ جنون الرجل » .. ثم قال لى بصوت عال :

ـ دكتور .. أ ..

أشرت بيدى له أن يصمت .. وعقدت حاجبىّ فى ذهول .. واستدرت له مبتسمًا .. قائلاً له :

- (ماردينى) أعتقد أننى وصلت إلى طرف الخيط ..

- خيط !!

- نعم .. الخيط الذى سيصل بنا لامحالة إلى مكان تلك المملكة .. « مملكة (جورناكوف) » ..

★ ★ ★

عدت بسرعة مع (ماردينى) إلى القاعدة .. وطوال الطريق كان يحاول (ماردينى) أن يفهم شيئًا .. لكنى تحفظت .. وبمجرد أن دخلت السيارة بنا إلى القاعدة .. خرجت منها مسرعًا .. وصوت (ماردينى) من خلفى ينادى :

- دكتور .. ألن تتناول معنا طعام الغداء ؟ لقد أوشك الدكتور ميشيل وابنته على العودة .. دكتور .. هل تسمعنى ؟

ارتقيت السلّم .. وفتحت باب غرفتى .. وفى أقل من دقيقة كنت مرتديًا منامتى .. ثم وضعت الصور مرة أخرى على الفراش وجلست بجوارها ..

فلنهدأ تمامًا .. تمامًا .. ولنركّز .. أكثر .. وأكثر .. مملكة (جورناكوف) .. شعب من الأقزام .. أشعر أن حل تلك المشكلة ترتبط بهذه الصفة .. القزامة .. ولكن كيف ؟ هذا ما أتمنى أن

أعرفه .. فحصت الصور .. فوجدت أن صفة القزامة لم تُذكر كثيرًا فى نصوص جواسيس المغول .. وأن حياتهم وعاداتهم لم تكن مرتبطة بالقزامة ارتباطًا ملحوظًا .. وصورة الخريطة لاتوضح شيئًا يرتبط بتلك الصفة .. لم يتبق غير صور اللوح الخشبى ..

الرموز غير مفهومة .. ويبدو من البداية أنها لا تتعلق بصفة القزامة .. آه .. لقد تعبت .. بقى صورتان .. صورة اللوح الخشبى وهو مغروس فى الأرض .. وتلك الصورة قد أُخذت فور اكتشافه فى أثناء الحفر .. والصورة الأخرى للوح الخشبى بعد استخراجه .. وتتضح عليه الإشارات على مسافات مختلفة .. ماذا ؟! مسافات مختلفة .. أى أطوال مختلفة .. ألا تشعركم كلمة « أطوال » هذه بشىء ؟ بالطبع .. احتمال كبير أن ترتبط تلك المسافات بصفة القزامة .. ولكى أتأكد .. لابد أن أفحص اللوح الخشبى بنفسى .. ولكن هناك مشكلة أخرى ..

إنه يرقد فى صندوق زجاجى بمتحف (موسكو) ..

كانت الساعة تقترب من الخامسة مساءً .. الثلج بدأ يتساقط .. ويتراكم على قمم الأشجار العالية فى حديقة القاعدة .. وعلى السياج المحيط بها .. وكنت أنا و (ناتاشا) والدكتور

و(ماردينى) نتناول القهوة فى شرفة غرفة الدكتور (ميشيل) .. فقالت (ناتاشا) :

ـ كانت جولة ممتعة يا دكتور (شريف) .. ليتك كنت معنا ..

ـ فرصة أخرى يا آنسة (ناتاشا) .. يبدو أن المدة ستطول هنا ..

فتساءل (ميشيل) :

ـ مدة ؟

ـ مدة بقائنا ..

ووسط ذهول (ناتاشا) والدكتور .. وبالطبع (ماردينى) .. أكملت :

ـ لقد وفقنى اللّه فى اكتشاف بوادر الغموض الذى يغلف اختفاء المملكة ..

ازداد ذهول الحاضرين أكثر .. ثم سألنى الدكتور (ميشيل) فى تعجب واضح :

ـ أنت !! كيف ؟

ـ سأخبركم .. أليس شعب المملكة كان أفراده أقزامًا ؟

فرد (ماردينى) :

ـ نعم ..

ـ حسن .. لم.لا يكون أمر اختفاء المملكة يتعلق بتلك الصفة ؟

الصمت المطبق .. ثم قال الدكتور (ميشيل) :

ـ ولنفترض .. إلى أى شىء قد توصلت ؟

ـ توصلت إلى أن فحص اللوح الخشبى على الطبيعة سيصل بنا إلى الحلّ ..

انفجر الدكتور (ميشيل) ضاحكًا حتى كاد يفقد وعيه .. وبعد أن انتهى من ضحكاته الساخرة .. نظر لى فى احتقار .. وقال :

ـ أهذا ما توصلت إليه عبقريتك ؟

ثم ضحك مرة أخرى ضحكة قصيرة .. قال لى بعدها :

ـ ألم أقل لك ؟ إن رحلتك إلى البرازيل يمكن أن ينجزها من هو أقل منك خبرة .. هذا لو كنت أصلاً تمتلك خبرة ..

نظرت له فى تحدٍّ .. قائلاً فى نفسى : « كفانى منك هذا .. لقد أهنت كرامتى بما يكفى .. وقللّت من شأنى بما يكفى .. وأخذك التقليل من شأن الآخرين إلى أعلى مراتب الكبرياء .. ولكنى تعلمت شيئًا من أستاذى الدكتور (كمال) .. أن الصبر .. الصبر وحده .. هو أفضل علاج لأمثالك .. ومن الآن فصاعدًا .. سأطبق شعارًا واحدًا .. هو .. « من يضحك أخيرًا .. يضحك كثيرًا .. »

★ ★ ★

٤ ـ البـــداية ..

دقت الساعة التاسعة مساءً .. وبعد وجبة عشـاء صامتة .. ذهب كل منا إلى غرفته .. ولكن (ناتاشا) لحقت بى .. قائلة :

ـ دكتور (شريف) .. أرجوك لا تغضب من أبى .. إنه هكذا دائمًا .. حتى معى ..

ـ لا تقلقى يا آنسة (ناتاشا) .. أنا لست غاضبًـا .. بـل سعيد .. سأتصل بسيادة الوزير غدًا حتى يبعث لـى بـاللوح الخشبى .. من يعرف ؟ ربما أجد الحلّ .

ـ أتمنى ذلك .. ولكن هل سيوافق أبى ؟

تضايقت من عبارة (ناتاشا) ولكنى أخفيت ضيقى لأجيبها :

ـ صحيح أن أباك هو مشرف الرحلة .. لكنه لا يحدد مصائر الناس ..

ـ إذن .. حاول أن تقنعه بالبقاء .. لقد أحببت المكان جدًا .. و ..

قطعت (ناتاشا) كلامها بسبب نداء أبيها الذى ناداها :

ـ (ناتاشا) .. هيا ..

قلت لـ (ناتاشا) مهدئًا لها :

ـ إن أباك لن يدع لى فرصة كما تعلمين .. حاولى أنت ..

كرر د. (ميشيل) النداء :

ـ (ناتاشا) .. قلت لك هيَّا ..

استدارت (ناتاشا) عائدة إلى أبيها .. وعدت أنا غير عـابئ إلى غرفتـى .. سأنام .. بكل جوارحى .. فغدًا يوم غير عادى .. تمامًا ..

★ ★ ★

ـ « لا .. لن تفعل .. »

قال تلك العبارة الدكتور (ميشيل) بكل سخط .. فهدأت من روعه .. وقلت له :

ـ ولماذا ؟

ـ هو كذا .. أتريد من سيادة الوزير أن يبعث لك بـأثر ثمين كهذا ؟ من أجل ترّهاتك ..

ـ دكتور (ميشيل) .. لا تظن أن احترامى لـك هو تصريح من أجل إهانتى ..

ـ ومن أنت يا ترى ؟ العالم الفذّ .. لست غير تلميذ فاشل من تلاميذ هذا الدكتور الذى يسمى (كمال) ..

آه .. لقد وصل إلى منطقة الخطر .. شعرت أن الدم قد بدأ يرتفع إلى رأسى .. وقلت له ضاغطًا على أسنانى ..

- إياك أن تخدش كرامة أستاذى .. وإلاّ ..

استدرك سريعًا .. وقال :

- ما علينا .. قلت لك لن تتصل ..

- الوقت يقترب من منتصف الليل .. وأنا أريد أن أنام ..

- أتطردنى ؟! حسن ..

خرج وأغلق البـاب بقـوة .. فتنفست الصعداء .. يـالك من فتاة يا (ناتاشا) .. لقد ذهبت تقول لأبيها كل شىء ..

وهذا الأخير لم يدع الأمر حتى الصباح .. لقد انتظر نوم (ناتاشا) وجاء يرينى قوة أحباله الصوتية ، وكيف أن صياحه لا يُعلى عليه .. وعدت أقول فى نفسى :

- الصبر .. الصبر يا (شريف) .. كل شىء بالصبر ..

★ ★ ★

صباح اليوم الرابع بالقاعدة ..

كانت هناك نقرات على بابى .. لحظات وبدأت تزداد فى الشدّة .. حتى أيقظتنى من نومى .. فنهضت متثاقلاً .. ثم قلت للطارق :

- ادخل .

فُتح الباب لتدخل منه (ناتاشا) .. باسمة الوجه :

- هيا يا دكتور (شريف) .. ألن ترتدى ملابسك ؟

أجبتها شبه مغمض العينين :

- وكم الساعة الآن ؟

- حوالى الخامسة والنصف صباحًا ..

كان هذا الردّ كفيلاً بجعل عينى ككشافات السيارة ..

- ماذا ؟ ولماذا أرتدى ملابسى فى هذا الوقت ؟

كانت الإجابـة هـى دخـول أبيهـا .. وكالعـادة .. يضـع مبسم غليونه بين شفتيه الرقيقتين .. ويرفع حاجبًا عن الآخر .. ويقول :

- الرحيـل .. سنذهب الآن إلـى مطـار (أومسك) .. ومنـه سنسافر مباشرة إلى (موسكو) .. ألم تشتق لوطنك الحبيب ؟

سألت الدكتور (ميشيل) :

- أين (ماردينى) ؟

- ولماذا تريده ؟

- سوف تعرف .. والآن .. اسمحو لى .. سوف أغير ملابسى ..

ابتسم الدكتور (ميشيل) فى خبث .. قائلاً :

- كم أحبك عندما تطيع الأوامر يا صغيرى ..

★ ★ ★

انتهيت مـن ارتداء ملابسـى .. وتركت غرفتـى متجهًـا إلـى موقع السيارة .. التـى تقف بجوار المبنـى .. هـا هـم أولاء .. أرى كـلاً من (ناتـاشـا) والدكتـور ، و(مـاردينـى) الذى ما إن

رآنى حتى فتح باب السيارة وجلس على مقعد القيادة .. وقبل أن يغلقه على نفسه .. صحت من بعيد :

ـ (ماردينى) .. لو سمحت .. أريدك فى شىء ..

واستدرت عائدًا .. والذهول يغلف الجميع بما فيهم (ماردينى) الذى ترك السيارة وركض خلفى يسألنى :

ـ ماذا هنالك يا دكتور .. ألن نذهب للمطار ؟

ـ سأقول لك فى غرفة الاتصالات كل شىء ..

صعدنا معًا .. ودخلنا غرفة الاتصالات واللاسلكى .. بعد أن مرّر (ماردينى) كارتًا خاصًا بفتحة معينة تجاور باب الغرفة .. وطلبت منه أن يتصل بسيادة الوزير .. تردّد لحظة .. ثم قال لى :

ـ إن الوقت مبكر جدًا ..

ـ قلت لك اتصل .. أرجوك ..

ـ كما تحب ..

ثم ضغط على زرّ خاص بالهاتف وبعدها رفع السماعة .. ليتكلم بلغته الروسية .. عدة كلمات .. ثم التفت لى يقول باللغة الإنجليزية :

ـ إنهم يوقظونه .. أرجوك .. لقد أخبرت حرسه الخاص بأن الأمر مهم جدًا .. فلا تخذلنى ..

ـ اطمئن يا (ماردينى) .. هو فعلاً كذلك .. فقط أعطنى السماعة ..

ـ تفضّل ..

★ ★ ★

ـ آلو .. سيادة الوزير .. آسف على إزعاجك ..

قلتها فى أثناء دخول دكتور (ميشيل) وابنته لاهثين .. وعبر الهاتف سمعت صوت الوزير الذى يتثاءب :

ـ دكتور (شريف) .. ماذا هناك ؟ يبدو أن الأمر خطير إلى درجة تجعلك تتصل فى تلك الساعة ..

ـ فى الحقيقة ، نعم ..

وبعد أن عرف الدكتور (ميشيل) من (ماردينى) مَن الذى يحدثنى عبر الهاتف .. ثار وقال لى :

ـ يبدو أنك لا تتعلم سريعًا .. أغلق السماعة الآن ..

أشرت له بيدى .. حتى أسمع بوضوح ..

ـ ماذا ؟ ماذا كنت تقول يا سيادة الوزير ؟

ـ أقول لك ماذا هناك ؟

ـ لقد وجدت الحلّ ..

ـ لا أفهم ..

ـ لقد وجدت حلّ لغز المملكة المفقودة ..

حاول الدكتور (ميشيل) منعى من مواصلة الحديث ، لكن (ماردينى) أعاقه .. بينما واصلت أنا الحديث :

ـ أريد منك أن تبعث لى اللوح الخشبى يا سيادة الوزير ..

ـ ولكن .. هل أنت متأكد مما تقول ؟

ـ آ .. نعم ..

ـ حسن .. غدًا أو بعد غد سيصل إليك .. ولكنه أثر غال يا دكتور (شريف) .. أرجو أن تحافظ عليه حتى إتمام بحثك ..

ـ حسن .. سأنتظر وصوله على أحرّ من الجمر .. لحظة يا سيادة الوزير .. دكتور (ميشيل) يريد محادثتك ..

لم يصدق الدكتور (ميشيل) وأخذ منى السماعة فى سرعة .. ليقول فى لهفة :

ـ آلو .. سيادة الوزير .. إنه يهذى .. لا تصدقه ..

وبعد ثوان أو أقل .. قطب حاجبيه وانتصب شعر لحيته .. ثم عاد يتكلم بتلك العبارات :

ـ ولكن ..

ـ إنه ..

ـ أنا أعرف ذلك .. لقد ..

ـ هكذا !! ولكن ..

عندها أبعد سماعة الهاتف فى حركة مباغتة .. ثم وضعها فى عنف .. يبدو أن الوزير أغلق السماعة أولاً .. عاد الدكتور ينظر لى نظرة غلّ .. ويقول بصوت مبحوح لابنته :

ـ (ناتاشا) .. أعيدى حقائبنا إلى الغرف مرة أخرى ..

★ ★ ★

[« بعد ذلك نظر (جنكيز خان) إلى ما تجاوره من القبائل ، وصمم على إخضاعها ، فانتصر على قبائل (التايجوت) ، و (كرايت) ، و (النايمان) ، وبسط سيطرته على منطقة شاسعة تمتد إلى شمال صحراء (غوبى) ، وأراد أن يضم إلى سلسلة غزواته تلك المملكة ، فبعث إليها جواسيس فى هيئة تجّار(*) .. »]

★ ★ ★

صباح اليوم الخامس .. الساعة العاشرة والربع صباحًا .. وصلت الطائرة العمودية التى هبطت فى حديقة القاعدة .. ليخرج منها القائد وشخص آخر .. كنت واقفًا مع (ماردينى) نستقبلهم .. بعد رفض دكتور (ميشيل) أن يستقبلهم معنا .. وبدأ قائد الطائرة الحديث قائلاً .. بعد أن صافحنا :

(★) مملكة (جورناكوف) من خيال المؤلف البحت ، أما بقية المعلومات فهى تاريخية ثابتة .

ـ صباح الخير .. أنت دكتور (شريف) ؟

ـ نعم ..

ـ لقد أتينا باللوح الخشبى كما طلبت .. ونتمنّى أن تلبى لنا ما سوف نطلبه منك ..

ـ وماذا تطلب ؟

ـ توقيعك على استلام اللوح الخشبى ..

وأخرج ورقة مطوية .. فردها وأشار لى إلى مكان التوقيع .. أخذتها منه وقرأتها بعناية .. ثم ابتسمت قائلاً :

ـ لا بأس .. أمعك قلم ؟

ـ نعم .. تفضل ..

وقّعت .. بعد ذلك قال قائد الطائرة مرة أخرى يسأل (ماردينى) :

ـ وأين سيادة مدير القاعدة ؟

ـ فى إجازة ..

ـ ونائبه ؟

ـ أيضًا فى إجازة ..

ـ أوه .. إن وقت الكريسماس لا يسمح بأى إجراءات رسمية .. إذن .. من يمكنه التوقيع على استلام اللوح ؟

ـ يمكننى ذلك ..

ـ ومن أنت ؟

ـ رئيس العمال فى القاعدة .. أى المسئول عنها فى هذه الحالة ..

ـ ولكن .. آ .. حسن .. تفضّل القلم ..

ووقع (ماردينى) على الورقة .. واستلمنا اللوح الخشبى فى صندوقه الزجاجى الطويل .. بينما عاد الطيار ومن معه إلى (موسكو) ..

★ ★ ★

وفى معمل العلوم التاريخية .. وضعنا صندوق اللوح الخشبى أمام ذهول (ناتاشا) وسخط الدكتور (ميشيل) .. ثم طلبت من (ماردينى) أن يأتى لى بمقياس الأطوال .. ففعل .. ولكن فضوله لم يدع فمه المغلق أن يظل مغلقًا :

ـ دكتور (شريف) .. لماذا تحتاج لمقياس الأطوال ؟

ـ ستعرف .. لا تتعجل الأمور يا (ماردينى) ..

وعلق الدكتور (ميشيل) :

ـ مؤكد يحتاج إليه لقياس فشله .. ها ها ها ..

نظرت إلى الدكتور وهو يضحك ساخرًا منّى .. قائلاً له :

ـ أليس غريبًا أن تتابع الفاشل فى فشله ؟

نزل سؤالى عليه كالصاعقة .. وعندما أفاق .. أجابنى :

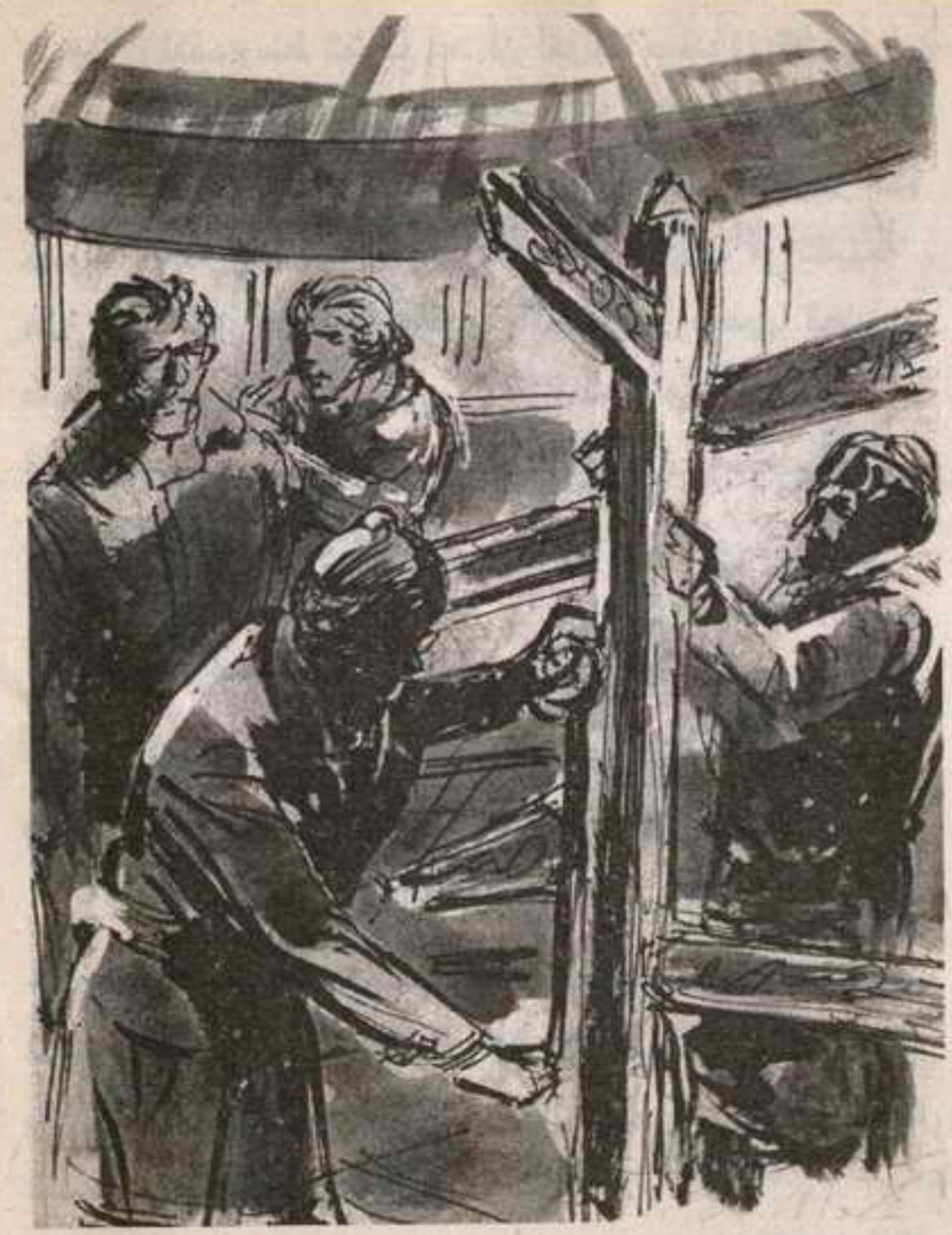

عدت فتبادلت ابتسامة خفية مع (ماردينى) .. وبدأت فى استخدام المقياس .. فوجدت ارتفاعات الإشارات تتماثل وتتباين ..

ـ آ .. آ .. أنا هنا مشرف الرحلة .. لابد أن أعرف كل شىء ..

عدت فتبادلت ابتسامة خفية مع (ماردينى) .. وبدأت فى استخدام المقياس .. فوجدت ارتفاعات الإشارات تتماثل وتتباين .. فهناك إشارتان لهما نفس الارتفاع وهو متر وخمسون سنتيمترًا .. وهناك إشارتان لهما ارتفاع يقدّر بمتر وأربعين .. وأربع إشارات لها الارتفاعات الآتية .. متر وخمسة وثلاثون ، متر وثلاثون ، متر وعشرون ، و ثلاثة أرباع المتر ..

والآن .. نفكر معًا .. المفترض أن يكون ارتفاع الإشارة الصحيحة يناسب ارتفاع ابن (جورناكوف) الذى سيعرفها بمجرد النظر إليها .. ماذا ؟! النظر إليها .. أى أنها فى مستوى نظره .. إذن .. ارتفاع إحدى تلك الإشارات هو ارتفاع ابن (جورناكوف) .. والأصح هو ارتفاع القزم نفسه ، فقد كانوا أقزامًا .. حسن .. لقد وصلت إلى الإشارة الصحيحة .. وهى التى ترتفع بمقدار مئة وعشرين سنتيمترًا عن الأرض .. وبقى أن أعرف إلى أى اتجاه تشير .

★ ★ ★

ولم أنتظر اقتناع الحاضرين بافتراضى .. فقد وضعنا اللوح فى السيارة .. وانطلقنا به إلى موقع المملكة .. القديم .

والآن نقف وسط الموقع بعد أن أخرجنا صندوق اللوح من السيارة .. ثم أمسكت صورة اللوح التى التُقطت له بمجرد اكتشافه .. وكان فيها مغروسًا فى الأرض .. خطوت عدة خطوات .. أقارن خلفية اللوح فى الصورة بمثيلتها فى الطبيعة .. حتى وقفت أمام الخلفية الأصلية .. ثلاثة جبال يغطيها الجليد .. طلبت من (ماردينى) أن يأتى باللوح الخشبى ويغرسه فى المكان الذى سأخبره به ، وذلك وسط صراخ الدكتور (ميشيل) :

ـ إنك تهدر آثار الدولة ..

ردت (ناتاشا) :

ـ أبى .. أرجوك ..

وبعد عدة محاولات .. استطاع (ماردينى) غرس اللّوح برفق فى نفس المكان الموجود فى الصورة .. عندها قلت له :

ـ توقف .. هكذا أفضل .. أرجوك أن تبتعد الآن عن المنظر ..

وابتعد (ماردينى) .. وقارنت الصورة بالطبيعة .. ولم أصدق نفسى عندما عرفت أن الإشارة التى ترتفع بمقدار المتر وعشرة سنتيمترات .. هى الإشارة التى تشير إلى اتجاه الشمال الشرقى .. فصحت فى انتصار :

ـ لقد عرفت الاتجاه .. لقد عرفته ..

سأل (ماردينى) :

ـ أى اتجاه ؟

ـ الاتجاه الذى رحل فيه (جورناكوف) وشعبه ..

ـ وما هو ؟

ـ الشمال الشرقى .. أكثر الاتجاهات أمنا من بطش المغول ..

★ ★ ★

القاعدة .. معمل العلوم التاريخية ..

ـ ولكن .. يتبقى مشكلة واحدة ..

(ناتاشا) :

ـ ما هى ؟

ـ تفسير الرموز على الإشارة ..

قال (ماردينى) :

ـ هى فعلاً رموز صعبة ..

تدخل (ميشيل) قائلاً :

ـ أنت تتكلم وكأنك وجدت نصف الحل ..

ـ هذا صحيح ..

ـ ليت سيادة الوزير يسمع حديثك ..

ـ لا يهم أن يسمعه الآن .. ولكن المهم أن يرى نتيجته بعد ذلك ..

قالت (ناتاشا) :

ـ أنا سعيدة بحماستك يا دكتور (شريف) ..

ـ وأنا سعيد بسعادتك يا (ناتاشا) ..

قال (ماردينى) :

ـ دعونى أقل شيئًا .. اليوم هو يوم الكريسماس .. فلندع ذلك الحديث إلى غد .. ولنحتفل معًا ..

ـ الكريسماس ! كل عام وأنت بخير يا (ماردينى) ..

وكل عام وأنت بخير يا دكتور .. ولك كذلك يا (ناتاشا) ..

أدار دكتور (ميشيل) وجهه عنّى بعد سماع تهنئتى له .. فاندهشت .. ونظرت لـ (ناتاشا) .. التى قالت مبتسمة :

ـ شكرًا لك يا دكتور (شريف) .. أرجو أن يكون العام القادم .. عامًا سعيدًا علينا جميعًا ..

★ ★ ★

٥ـ أول الخيط ..

صباح اليوم السادس بالقاعدة .. وأول أيام العام الجديد .. لقد أرسلت خطابًا للعائلة فى مصر أطمئنهم على أحوالى وأطلب منهم الدعاء ..

اليوم يعود معظم العاملين بالقاعدة وعلى رأسهم سيادة مدير القاعدة .. ونائبه .. وتعود للقاعدة سرعتها وحيويتها التى اختفت خلال الأيام السابقة .. وكنت قد وضحت أمر اللوح الخشبى لمدير القاعدة .. وعرضت عليه نظريتى .. فرحّب بها .. وأخبرنى بدعمه الكامل لى .. غير عابئ بأقاويل الدكتور (ميشيل) ..

واليوم .. اليوم فقط .. عرفت كل شىء .. أن الدكتور (ميشيل) كان رئيس بعثة الكشف عن آثار المملكة المفقودة ، وبعد بحث وحفر دام ستة أشهر ، توصل الدكتور إلى لا شىء وبالتالى .. صرّح هو ومعاونوه بأن مملكة (جورناكوف) هى مملكة وهمية من صنع خيال قادة المغول .. لذا .. فهو يريد إعاقتى عن البحث عنها مرة أخرى .. فكيف إذا وجدتها ؟!

ولهذا أيضًا لم يعبأ به الوزير أو مدير القاعدة .. فروسيا فى انتظار خبر سعيد لم تسمعه منذ سنين .. وتشتاق لسماعه .. ألا وهو .. خبر اكتشاف مملكة (جورلاكوف) ..

لقد وضع مدير القاعدة ـ بعد إخبار الوزير طبعًا ـ كل شىء يمكن أن أحتاج إليه تحت تصرفى .. وهذا كما فعلو سالفًا مع الدكتور (ميشيل) .. وعند الظهر ـ أفضل وقت فى هذا البرد القارس ـ سنذهب إلى موقع الحفر .. لعلّى أجد أى شىء آخر يدل عليه ذلك الرسم الغامض ..

★ ★ ★

انطلقت السيارة فى طريقها إلى موقع الحفر .. وقلبى لا يزال ينبض بسرعة ألف نبضة فى الثانية الواحدة .. إن ذلك الكشف الأثرى المهم لهو أعظم شرف ـ على ما أعتقد ـ يمكننى أن أناله .. ولم يزل ـ أيضًا ـ عقلى يحدث نفسه .. قائلاً :

(شريف) .. أنت سفير لمصر فى هذه البلاد .. فلا تخيب ظن كل من يضعون عليك آمالاً كبيرة ..

أشعر بأن جسد التاريخ يرقد بلا حراك تحت طبقات عديدة من الأرض .. لا يتنفس .. وينادينى بصوت مستغيث :

« هلم يا (شريف) .. أخرجنى لأرى النور .. هلم »

توقفت السيارة .. وتوقف سيل أفكارى .. وخرجت من السيارة أتطلع إلى مكان الحفر .. حين دار هذا الحديث الذى بدأه مدير القاعدة :

ـ ولكن دكتور (شريف) .. هل استنتجت أى شىء من الرسم بعد ؟

ـ فى الحقيقة .. ليس بالكثير ..

قالت (ناتاشا) :

ـ وهذه المرة ماذا ستفعل ؟

رد عليها د. (ميشيل) :

ـ سيسأل الجبال عن مكان المملكة ..

ـ لا .. ولكنى سأربط بين الرسم وطبيعة المكان ..

خطرت لى فكرة .. فركضت ناحية السيارة .. والتقطت المنظار المقرب .. وعدت مرة أخرى إلى الموقع الذى غرسنا فيه اللوح أمس .. فسألنى (ماردينى) :

ـ هل تحتاج إلى مساعدة ؟

ـ لا .. انتظر .. أتمنى أن يكون توقعى صحيحًا ..

ورفعت المنظار فوق عينى .. فى اتجاه الشمال الشرقى كما تقول البوصلة .. رأيت أشياء كثيرة .. ضباب يغلف المنظر ..

يختفى من ورائه جبلان ـ كما توقعت ـ شاهقان .. ولكن الفرحة كانت غامرة عندما تأكدت بأن الجبلين المجاورين متباينان فى الحجم ..

★ ★ ★

كنت أتكلم وأتصرف بسرعة غريبة .. فلم أكن أصدق نفسى .. لقد شبّهت رقمى الثمانية على الرسم بالجبال .. وهأنذا أرى جبلين متجاورين .. وبقى أن أعرف ما الذى يدل عليه ذلك المستطيل ..

ـ (ماردينى) .. هل يوجد بالعربة جهاز تتبع المواد الغريبة ؟

ـ نعم ..

ثم التفتّ إلى مدير القاعدة أسأله فى اهتمام :

ـ أعلم أن الأمر صعب .. ولكنى أحتاج إلى إصبعين من الديناميت ..

ـ حسن .. سأتصل بالقاعدة .. خمس دقائق وتكون المتفجّرات هنا ..

وذهب إلى السيارة ليجرى الاتصال .. وفعلاً .. بعد خمس دقائق .. بل أقل .. كانت هناك سيارة أخرى تقل أربعة من

عمال الحفر .. وصندوق من الديناميت .. لم أنتظر .. ركبنا السيارة .. وانطلقنا إلى المكان المعهود ..

★ ★ ★

ها هو ذا المكان .. الجبلان .. والجليد الذى يكسو قمة كل منهما ..

تناولت جهاز التتبع .. وأدرته لتعمل موجاته التصادمية على عمق مترين .. ومسحت الوادى الضيق بين الجبلين .. فلم أسمع رنينه المحبب إلى قلبى .. ثم ضبطته على عمق خمسة أمتار .. ولم أسمع شيئًا .. الصبر .. الصبر هو مفتاح التركيز .. حسن .. سوف أضبطه على عمق عشرة أمتار .. فلم أكد أخطو ثلاث خطوات حتى سمعت ذلك الرنين .. الذى لم يلبث أن علا صوته بشدة عند اقترابى من تلك البقعة بين الجبلين .. توقفت وأطفأت الجهاز .. ونظرت إلى الواقفين مبتسمًا .. أقول لهم بصوت هادئ :

ـ هناك شعرة تفصل بين الخيال والواقع .. يجب أن نقطعها ..

سألنى المدير و (ماردينى) و (ناتاشا) عما قد وجدته .. فكانت إجابتى أن الانتظار هو أفضل شىء نفعله ، حتى ينتهى العمال من حفر تلك الحفرة الضيقة بهذا الحفار الحلزونى الآلى .. حتى يتم زرع أصابع الديناميت على عمق أربعة أمتار ..

« لقد انتهينا يا سيدى » .. قالها (ماردينى) لمدير القاعدة بعد أن تم زرع المتفجّرات فى أماكنها .. فردّ عليه المدير :

ـ حسن .. ابتعدوا عن مكان التفجير ..

ابتعدنا جميعًا عن مكان التفجير ووقفنا خلف ستار من الجليد .. وأعطانى المدير جهاز التفجير قائلاً :

ـ نحن من الآن رهن إشارتك ..

فقال الدكتور (ميشيل) :

ـ لا .. أنا لا ..

أخذت نفسًا عميقًا .. ثم نظرت إلى اليد البارزة من جهاز التفجير .. قائلاً :

ـ حسن .. استعدوا .. واحد .. اثنان .. ثلاثة ..

دوى صوت الديناميت المنفجر فى أرجاء المكان ، حيث إنه تسبب فى دفع كمية ضخمة من الثلوج إلى عنان السماء ، لم تلبث أن سقطت مرة أخرى ، تاركة خلفها شبورة بيضاء انقشعت خلال ثوان ..

هرولنا جميعًا نحو الحفرة التى صنعها الديناميت .. نقترب ونقترب .. وقلوبنا شبه متوقفة عن النبض حتى نرى ما بداخل تلك الحفرة .. نقترب .. ونقترب .. والآن نقف على حافتها ..

تتعلق عيوننا بقاع الحفرة .. حيث هبطنا جميعًا .. وبمجرد أن أدرت جهاز التتبع مرة أخرى عند القاع .. أصدر رنينًا عاليًا ..

★ ★ ★

« استمروا فى الحفر » .

قائلاً تلك العبارة فى حماسة .. واصل العمال استخدام المعاول والمدقّات .. حتى استخرجنا ذلك الصندوق الخشبى .. وبحركة بسيطة بأحد المعاول فتحته .. وظهر بداخله تلك القطعة الكبيرة من الجلد ، والمرسوم عليها بعض الرموز والعلامات .. إنها خريطة .. واضحة .. وتلك العلامة (×) المشار إليها فى أعلى الخريطة ، مؤكد أنها تدل على موقع المملكة ..

ـ هيه .. هيه ..

مثل الأطفال الصغار نهنئ أنفسنا ونتصافح ونصيح بتلك الكلمة اللذيذة الطعم فى الفم .. « هيه » .. ولكن الدكتور (ميشيل) لم يتفوه بها معنا .. فقط قال بصوت عال يملؤه اليأس ..

ـ لماذا ؟ لماذا ؟

وركض صاعدًا لأعلى .. وهو يردّد : « لماذا » .. « لماذا » ..

نهضت (ناتاشا) لتلحق به .. ولكن سرعة الدكتور قد تفوقت .. لقد وصل إلى حافة الحفرة .. لقد جُنّ جنونه .. تركت

الخريطة من يدى وركضت خلفه بأقصى سرعة .. والباقون قد أخذوا الخريطة ولحقوا بى ..

الدكتور يركض رافعًا يديه لأعلى .. يصيح فى خبل ..

ـ لماذا هو ؟ لماذا هو ؟

وأنا أناديه لاهثًا ..

ـ دكتور .. هذا ليس وقت الحزن .. إنه وقت الفرح ..

كانت المسافة بينى وبين الدكتور لا تزيد على المترين .. عندما تعالى صوت (ماردينى) من الخلف ..

ـ لا .. توقفوا .. إنه نهر متجمد ..

★ ★ ★

كان الوقت قد فات .. وكان (ماردينى) متأخرًا فى تحذيره .. لقد كانت طبقة الجليد التى نركض فوقها رقيقة .. والدليل على ذلك أنها تكسرت .. ليقع الدكتور فى الماء البارد .. وأقف أنا قبل تلك الفتحة ببضعة ملليمترات .. لا أعرف ماذا أفعل .. لقد غاص الدكتور تحت الماء .. ولكنه سرعان ما صعد مرة أخرى يضرب بذراعيه .. ولكن لا فائدة .. بمجرّد أن مددت يدى لأسحبه .. غاص مرة أخرى .. أوه .. يبدو أن الدكتور لا يريد منى أن أنقذه حتى لو كان ذلك فى صالحه ..

وقف الباقون على حافة النهر المتجمد ينظرون ، و (ناتاشا)

ولكنه سرعان ما صعد مرة أخرى يضرب بذراعيه .. ولكن لا فائدة .. بمجرّد أن مددت يدى لأسحبه .. غاص مرة أخرى ..

منهارة تمامًا تستند إلى ذراعى (ماردينى) .. أما أنا .. فلم أجد مفرًا من القفز فى الماء ..

ستضحكون إذا أخبرتكم بأن الماء بارد .. لذا ـ منعًا للسخرية ـ سوف أخبركم بأن الماء كانت درجة حرارته بين الواحدة والاثنتين درجة مئوية .. أى أننى أصبحت مثل قطعة اللحم التى وضعت فى الثلاجة حتى لا تفسد ، أخذت أضرب بذراعىَ فى الماء ، بحثًا عن جسد الدكتور .. آه .. أين ذهب ؟ الماء يسحبنى لأسفل .. وأنا أحاول البقاء فى موضعى .. أضرب بذراعىّ .. أين ذهب ؟

★ ★ ★

إن الموقف فى غاية الصعوبة .. درجة حرارة جسدى تقل وعضلاتى تتصلب شيئًا فشيئًا .. وكمية الأكسجين التى اختزنتها فى رئتى قاربت على النفاد ..

مازلت أضرب بذراعىَ فى الماء .. حتى أجد ذلك الـ .. آه ها هو ذا .. يضرب الماء بكلتا يديه فى يأس .. وبمجرد أن شعر بأننى قد أمسكته توقف عن المقاومة .. فزاد وزنه .. لا .. لاتأخذنى معك لأسفل .. أخذت أحاول السباحة لأعلى حتى يمكننى الصعود مرة أخرى .. ولكن الحظ لا يأتى دائمًا كما تشتهى النفس ،

فعندما وصلت إلى سطح الماء وجدت طبقة من الجليد الصلب .. أين الفتحة ؟ هل تحركت ؟ ليس هذا وقته .. تحسست الجليد من كل ناحية .. الفتحة ليست موجودة .. وأحتاج كمية أخرى من الأكسجين ..

ليس هناك حلّ آخر .. جمّعت كل قوتى فى قبضة يدى .. ثم بعدّة ضربات متتالية .. تكسرت طبقة الجليد .. صعدت لأعلى ساحبًا جسد الدكتور (ميشيل) .. حتى طفونا فوق سطح الماء .. ففتحت فمى ليشترك مع أنفى فى تعبئة أكبر كمية من الأكسجين .. ولا بأس من بعض السعال .. حتى تطرد رئتى أى جزيئات من الماء المتسرب .. وشعرت بأن هناك أيادىَ تسحبنا وتحملنا ، وأصواتًا لم أميّز منها غير :

« تنفس صناعى » .. « هيا نعد » .. « بسرعة » .. « أبى » ..

★ ★ ★

كان المساء .. مبنى الأبحاث البيولوجية والطبية .. مجمع العلاج الطبيعى .. كنت راقدًا فوق الفراش .. استعدت وعيى أخيرًا بعد ما حدث ظهر اليوم .. وكان الدكتور يرقد على فراش جوارى .. ولكنه استعاد وعيه قبلى .. ركزت بصرى على الحاضرين .. إنه الطبيب المعالج .. ومدير القاعدة .. و (ناتاشا) .. التى قالت بصوت حنون :

ـ حمدًا للّه على سلامتك يا دكتور (شريف) ..

وقال المدير :

ـ أنت بطل حقًا ..

ـ شكرًا جزيلاً ..

ولم أصدق نفسى عندما سمعت صوت الدكتور (ميشيل) يقول فى خجل :

ـ شكرًا يا دكتور (شريف) .. أرجو أن تقبل اعتذارى عما بدر منى سلفًا .. أ ..

ـ لا تعتذر يا دكتور .. فالأستاذ لا يعتذر لتلميذه ..

قالت (ناتاشا) :

ـ هؤلاء هم حقًا أحفاد الفراعنة ..

ـ والخريطة ..

رد المدير :

ـ لا تقلق .. تم حفظها .. المهم أنت ..

ـ أنا !! أنا بخير حال ما دمت اطمأننت على الدكتور ..

فقال الدكتور (ميشيل) :

ـ وأنا أيضًا مطمئن .. ما دمت أعرف شخصًا مثلك ..

* * *

٦ ـ الانطـــلاق ..

اليوم التاسع فى القاعدة .. كانت الساعة العاشرة صباحًا .. وكنا مجتمعين فى قاعة الخرائط بمجمع العلوم الجغرافية .. نقارن تلك الخريطة التى وجدناها بالتضاريس الطبيعية .. وفعلاً .. كانت مطابقة تمامًا لذلك الطريق الواصل بين (أومسك) وهضبة (سيبيريا) الوسطى التى تعلوها علامة (×) ويبدو أن تلك العلامة تعنى الموقع الجديد لمملكة (جورناكوف) ..

تلك الجبال المرسومة بإتقان ، وذلك الطريق المنحنى عدة انحناءات يبعث فى النفس راحة لا مثيل لها .. لقد وجدنا موقع المملكة .. ولم يتبق غير أن نراها عيوننا رؤية اليقين ..

المسافة الرأسية تقدّر بحوالى ألف وخمسمائة كيلومتر .. ولكن على الخريطة الأمر يختلف ، لأن الطريق المتعرج الذى سنسلكه كان طوله يتعدى الألفى كيلومتر .. حيث انتقل شعب (جورناكوف) إلى ذلك المكان من مدة لا تقل عن الشهرين ، وذلك بسبب تلك الأشياء الثقيلة التى كانوا يجرّونها فوق الجليد .. وعلمنا أيضًا أن احتمال اكتشاف بقايا القرية كما هى ضعيف .. والاحتمال الأعظم هو اكتشاف بقاياها ..

والسبب فى تأخير ذلك الاجتماع ثلاثة أيام .. هـو أن الحالـة الصحية للدكتور (ميشيل) ولى كانت سيئة . ولكنى الآن على ما يرام .. وتملأ حماستى المحيط .. ومستعد لعمل أى شىء ..

انتهى الاجتماع حوالى الساعة الثانية بعد الظهر ، وحان موعد آخر يجب الوفاء به حتى أستطيع أن أفكر جيدًا .. إنـه موعد الغداء ..

★ ★ ★

« لا يمكن .. »

قال تلك العبارة مدير القاعدة ردًا على اقتراحى بأن نذهب فى رحلة البحث عن المملكة على متن الطائرات العمودية .. فقلت له :

ـ لماذا ؟

ـ إن تلك الفترة من فصل الشتاء لا تبعث الأمان فى النفس .. إنه الشمال .. العواصف .. والطقس المحيّر . لا تدرى هل سيظل جيدًا أم ينقلب عليك فى أى لحظة ..

عندها تذكرت موقف العاصفة والقفز بالمظلات .. آه .. لا أحب أن يتكرر مرة أخرى ..

ـ وبماذا سننتقل ؟

ـ بالعربات المصفحة ..

سألت (ناتاشا) مستنكرة :

ـ وهل ستتحمل إطاراتها برودة ثلج الشمال ؟

ـ إنها مصنّعة خصّيصًا لذلك .. فقلت :

ـ إذن .. لابد أن يتم تجهيزها بأشياء إضافية ..

ـ لا ريب فى ذلك .. اترك تلـك الأعمـال لنـا .. المهـم .. قـم أنت بتجهيز صفّ العمال والمساعدين الذين تحتاج إليهم ..

ـ الدكتور (ميشيل) وأنا .. سنقوم بذلك معًا .. أليس كذلـك يا دكتور ؟

ـ بلى ..

ـ حسن .. نستأذنك الآن يا سيادة المدير ..

ـ تفضّلوا ..

وخرجنا من غرفة مدير القاعدة أتحدّث مع الدكتور (ميشيل) وابنته فى سعادة بالغة .. لقد أصبحنا أصدقاء حميمين .. ولـم يعد الدكتور يُسمعنى مـا لا أحبّذ أن أسمع .. وأضحينـا فريقًا واحدًا يسعى ـ أيضًا ـ لشىء واحد .. هو اكتشاف غموض تلك المملكة .. المملكة المفقودة ..

★ ★ ★

صباح اليوم العاشر .. الساحة الكبيرة للسيارات المصفّحة .. الساعة الثامنة .. وهى ساعة الانطلاق كما اتفقنا ..

تم تجهيز أربع سيارات مصفّحة .. وتكليف عشرة عمّال ، مع خبير جيولوجى ، وخبير ترميم ، وبالطبع لم نكلّف خبيرًا جغرافيًا .. فـ (ناتاشا) تكفى ، ورئيس العمال (ماردينى) ، مع طبيب شاب .

وبصوت تملؤه الثقة .. قال المدير فى أثناء مصافحتنا ..

ـ بقدر ما نأمل اكتشاف هذا الأثر العظيم .. بقدر ما نأمل عودتكم لنا سالمين ..

ـ اطمئن .. ما دام الإنسان يحب العلم ويعطيه كل شىء : ماله ومجهوده وربما حياته ، سيفعل العلم نفس الشىء ، بل أكثر ..

قال المدير :

ـ وأنت يا دكتور (ميشيل) ، ما هو شعورك الآن تجاه دكتور (شريف) ؟

ـ أشعر بأن الزمن قد عاد بى إلى أيام شبابى ، وأستطيع أن أفعل الكثير ، طبعًا بصحبة تلميذ نجيب مثل الدكتور (شريف) ..

ـ شكرًا لك يا دكتور ..

وقالت (ناتاشا) :

ـ أنا سعيدة حقًا لسماع ذلك الكلام ، وسأكون أكثر سعادة عندما نعود وفى أيدينا مفاتيح تلك المملكة ..

فقال المدير :

ـ حسن .. أتمنى لكم رحلة موفقة ..

ـ إلى اللقاء ..

ـ إلى اللقاء .

ركبنا السيارات .. ثم انطلقنا .. فى الطريق إلى مملكة (جورناكوف) ..

★ ★ ★

كانت السيّارة التى نستقلّها تتقدّم السيّارات الأربع .. وقد بدأ الجو يسوء .. والجليد يتساقط .. لكن ذلك لم يمنع السيارة من التهام الطريق التهامًا .. فقد كانت تسير بسرعة تتراوح ما بين الخمسين والخمسة والخمسين كيلومترًا فى الساعة .. وحسب الخريطة .. نحن نسير فى الاتجاه الصحيح .. والمفترض أننا بعد حوالى ساعتين نجد تلك الجبال الثلاثة المرسومة فى الخريطة .. أوسطهم هو أكبرهم .. وبينما أنا أتأمل الخريطة جاء إلى مسامعى صوت (ناتاشا) :

ـ هلا أخبرتمونى أكثر عن تلك المملكة ؟

تنهّدت فى عمق .. وكذا فعل الدكتور (ميشيل) .. ثم بدأت فى الحديث :

ـ لن أقول لك شيئًا يخرج عن المعلومات التى وجدت من النصوص المغولية ..

ـ وما أصل تلك النصوص ؟

ـ إنها رسائل من جواسيس المغول إلى الخان الأعظم ..

بُهت وجه (ناتاشا) لما تسمعه .. فأكمل الدكتور (ميشيل) :

ـ الخان الأعظم هو (جنكيز خان) ..

ظهر الارتياح مرة أخرى على وجه (ناتاشا) .. وقالت :

ـ حسن .. بدأت أفهم .. أكمل يا دكتور (شريف) ..

اعتدلت فى جلستى استعدادًا لهذه الليلة من ليالى (ألف ليلة وليلة) .. وعدت أكمل حديثى ..

★ ★ ★

وسط اهتمام (ناتاشا) الجارف بالقصّة .. استرسلت فى الكلام :

ـ وبعد أن أرسل (جنكيز خان) كعادته ثلاثة من أفضل جواسيسه .. للمعيشة وسط تلك المملكة فى هيئة تجّار صينيّين ..

وإبلاغ الخان الأعظم بجميع المعلومات التى توضح مدى قوة ذلك الشعب .. وخيراته .. وأمواله .. وكنوزه .. وبالفعل أدى هؤلاء الجواسيس مهمتهم على أكمل وجه ..

ـ كيف ؟

ـ لقد أرسلوا إلى (جنكيز خان) يخبرونه بكل شىء عن تلك المملكة .. أ ..

قطع حديثى صوت (ماردينى) .. الذى يقود السيّارة :

ـ لقد اقتربنا من جسر نهر (إرتش) ..

قلت له فى اهتمام :

ـ حسن .. انحرف يسارًا بعد عبور الجسر ..

ـ أمرك ..

قال د. (ميشيل) :

ـ و بعد عبور الجسر .. كم سيتبقى لنا حتى نصل إلى أول رسم ؟

ـ حوالى نصف ساعة .. يبدو أن حساباتنا ستتغير دائمًا فى المسافات والأزمنة ..

قال (ماردينى) :

ـ وكم يوجد من الرسوم على طول الطريق ؟

ـ اثنا عشر رسمًا ..

وهل كلها رسوم لجبال ؟

ـ نعم .. وهذا أفضل .. حيث .. إ ..

• نظرت على البعد .. فرأيت تلك المرتفعات الثلاثة .. ليس هذا فقط .. إن أوسطها أكثر ارتفاعًا من الباقيين ..

سألت (ناتاشا) :

ـ دكتور .. ألن تكمل ؟

ـ ليس الآن يا (ناتاشا) ..

حمدًا لله .. لقد تخطينا أول رسم .. والآن نحن فى طريقنا إلى الرسم الثانى .. ذلك الجبل ذى القمتين ..

سأل د. (ميشيل) :

ـ وما المسافة المقدرة بين الرسم الأول والثانى ؟

ـ حوالى مائة وعشرين كيلومترًا ..

ـ ياه ..

ـ ليس هذا فحسب .. إن الطريق بينهما متعرّج ..

ـ والانحرافات ؟

ـ يمين .. ثم يسار .. فيمين ..

قال (ماردينى) :

ـ ولكننا هكذا سنخرج عن الطريق الممهّد ..

ـ إذا سرنا على الطريق الممهّد .. سنصل بعد حوالى عشر ساعات .. هذا لو استطعنا أن نستدل على ذلك الجبل أصلاً ..

لم أكد أنهى عبارتى حتى رأينا تساقط الجليد مرة أخرى .. ولكنه هذه المرة يتساقط متأرجحًا فى الهواء .. مما يدل على أن هناك رياحًا تداعبه ..

ـ إن الجليد لا يزال يتساقط ..

قالت (ناتاشا) :

ـ المهم ألاّ تحدث عاصفة ..

ـ ...

كنا نسير بجوار عدة سلاسل جبلية جليدية صغيرة .. عندما بدأت قطع الجليد الصغيرة تصطدم بزجاج السيارة فى شدة .. « بوم » .. « بوم » .. « تراك » .. ثم زادت شدة اصطدامها إلى درجة مخيفة .. وأصبح الطريق أمامنا أبيض اللون بسبب تلك الثلوج المتساقطة ..

سأل (ماردينى) :

ـ آنسة (ناتاشا) .. هل أقف حتى تنتهى تلك العاصفة ؟

ـ لا .. إذا وقفت سيغطينا الجليد .. استمر ..

ـ ولكنى لا أرى شيئًا .. فقلت له :

ـ استمر يا (ماردينى) ولكن ببطء .. وأعط إشارات للسيارات خلفنا حتى يبطئوا من سرعتهم أيضًا ..

ـ حسن ..

ـ وبمجرد انتهاء العاصفة .. سنعسكر فى أى مكان ..

لقد أوشك النهار على الرحيل(*) ..

قالت (ناتاشا) :

ـ هذا أفضل ..

★ ★ ★

كم كان المساء جميلاً .. بِلَيْلِهِ الساحر .. وسمائه التى تشبه صفحة سوداء تحتضن تلك النبضات المضيئة التى تسمى بالنجوم .. ووسط تلك الثلوج المتراكمة .. والبرد القارس .. كانت سياراتنا تقف متراصة بجوار بعضها .. وأفراد الرحلة ينتشرون فى جميع أرجاء المكان .. كل اثنين أو ثلاثة أو أكثر .. يتناولون عشاءهم مع القهوة الساخنة .. ولأن ليل الشتاء ـ وخاصة فى تلك المناطق ـ طويل .. لم يفضّل أغلبيتنا فكرة النوم .. فى تلك الخيام البلاستيكية الجاهزة ..

(★) كلما اقتربنا من الشمال قصُرت فترة النهار أكثر ..

كنت مع الدكتور (ميشيل) وابنته و (ماردينى) نخطو خطوات هادئة فى المكان .. نتحدث .. لعلّ الحديث يساعد على هضم تلك الوجبة ..

سألتنى (ناتاشا) بصوت رقيق :

ـ ألن تكمل يا دكتور قصة الجواسيس ؟

توقفت لحظة لأتذكر .. ثم عدت أكمل حديثى السابق :

ـ آه .. نعم تذكرت .. حسن .. لقد قلت إن جواسيس (جنكيز خان) تأقلموا مع تلك المملكة .. وكانوا يزورونها كل أسبوعين تقريبًا لتبادل البضائع ..

ـ طبعًا .. ذلك لم يكن هدفهم الحقيقى ..

قال د. (ميشيل) :

ـ هذا صحيح ..

ـ كانوا يتودّدون إلى (جورناكوف) .. حتى وافق على بناء بيت لهم فى الجوار ..

قالت (ناتاشا) منبهرة :

ـ يا لهم من أذكياء ..

تمهّلت لحظة .. وقلت فى نفسى : أنتِ متسرعة يا (ناتاشا) ، وعدت أردف :

ـ ولما أراد هؤلاء الجواسيس إرسال معلومات إلى قائدهم .. بحيث لا يرتاب فيهم (جوروناكوف) وشعبه ، استطاعوا تدريب الحمام الزاجل على تلك المهمة ..

فقالت (ناتاشا) :

ـ ألم أقل لك إنهم غاية فى الذكاء ؟!

علق د. (ميشيل) ضاحكًا :

ـ هاها .. أرجو أن يدوم انطباعك هذا حتى تنتهى من سماع القصة ..

ـ المهم .. أن ما جاء من معلومات سجّلها هؤلاء الجواسيس هو من الغرابة بحيث لا يُصدّق ..

سألت (ناتاشا) :

ـ كيف ؟

ـ هذا ما سوف أخبرك به فى وقت لاحق .. لابد أن نأخذ قسطًا من الراحة ، فلا نعلم ما قد نواجهه فى الغد ..

أليس كذلك ؟

أجابت غاضبة :

ـ بلى ..

★ ★ ★

ظهر اليوم الثانى للرحلة .. وما زلنا مستمرين فى طريقنا .. لقد تخطينا حتى الآن ثلاثة رسوم .. وباقى تسعة .. وبينما نحن نقترب من الرسم الرابع وهو يشبه الهضبة الصغيرة .. ولكن فى أسفلها فجوة سوداء .. شىء غريب .. ما هى تلك الفجوة يا ترى ؟

فى أثناء تطلعى فى الخريطة .. ارتفع رنين الهاتف .. فرفع (ماردينى) السماعة .. وبعد عدة عبارات بالروسية ـ التى أحاول أن أتعلمها وسأفعل ـ أعطانى السماعة قائلاً .. ولكن هذه المرة بالإنجليزية « المكسّرة » :

ـ إنه لك يا دكتور (شريف) .. مدير القاعدة ..

تناولت منه السماعة .. واضعًا إياها فوق أذنى ..

ـ آلو ..

ـ آلو .. دكتور (شريف) .. هل الرحلة موفقة وعلى ما يرام ؟

ـ حتى الآن نعم ..

ـ كم تبقى من الرسوم التى لم تكتشفوها بعد ؟

ـ لقد اقتربنا من موقع الرسم الرابع ..

- حسن .. سيادة الوزير يرغب فى الاطمئنان عليكم كل لحظة .. أرجو أن تتصلوا بى دائمًا ..

- تأكد يا سيادة المدير أنك أول من سيعلم بأمر اكتشاف المملكة ..

- كم أتمنى .. حسن .. إلى اللقاء ..

- إلى اللقاء ..

وبعد أن وضعت سماعة الهاتف ، سمعت صوت الدكتور (ميشيل) يقول فى توجّس :

- (شريف) .. انظر .. أليس هنا هو الرسم الرابع ؟!

رفعت عينى أرمق تلك الهضبة الصغيرة المغطاة بالثلوج .. والتى تحتضن كهفًا عريض المدخل .. آه .. إن تلك الفجوة السوداء فى الرسم تشير إلى ذلك الكهف .. دنونا من الهضبة .. حتى توقفنا بسياراتنا أمام مدخل الكهف ..

نزلنا من السيارة .. نحدّق فى ظلام الكهف الدامس .. إن مدخله عريض حقًا ولكنه لا يصلح لأن يدخله رجل بالغ منتصب القامة .. بل لابد أن ينحنى حتى يستطيع ولوجه ..

قال لى الدكتور (ميشيل) فى تساؤل :

- يجب علينا الآن معرفة الاتجاه الذى سنسير فيه بداية من هذه النقطة ..

- نعم .. إن الاتجاه على الرسم يميل بزاوية مقدارها ٣٧,٥° على العمود المقام على فوهة الكهف ..

قال (ماردينى) :

- حسن .. سآتى بمقياس الزوايا ..

قال د. (ميشيل) :

- بسرعة ..

أتى (ماردينى) بمقياس الزوايا .. فوقفت جاعلاً ظهرى موجّهًا لفوهة الكهف .. وباستخدام المقياس .. ضبطت الزاوية على ٣٧,٥° ، فانحرف المؤشر بمقدار تلك الزاوية .. فوجهت وجهى لاتجاه المؤشر .. وعندئذ قلت فى نشوة :

- هذا هو الاتجاه ..

- حسن .. هيا بنا .. لا نريد إضاعة المزيد من الوقت ..

- يسعدنى حماستك يا دكتور ..

- لن تكون أشد من حماستك أنت ..

تبادلنا ابتسامة بسيطة ونحن عائدون إلى العربات المصفّحة .. ولكن بعد استقرارنا بها .. وقبيل أن يدير (ماردينى) المحرك منطلقًا .. سمعت نبرات صوت الدكتور (ميشيل) المتسائلة :

- أين (ناتاشا) ؟

التفتّ ورائى .. فلم أجد (ناتاشا) بجوار الدكتور .. فلم أجد إلا إخراج رأسى من نافذة السيارة أبحث بعينى عن (ناتاشا) .. لقد كانت المنطقة خالية تمامًا .. فتحت الباب وخرجت .. ثم تبعنى الدكتور وبعده (ماردينى) .. الذى قال :

ـ ربما استقلت سيارة أخرى ..

لم نهمل ذلك الاحتمال .. وبحثنا عنها فى السيارات الأخرى .. كانت النتيجة ذعر العمال والخبراء على (ناتاشا) الضائعة .. وأبيها الذى بدأت أطرافه ترتعد ـ ليس من البرد طبعًا ـ ولكن خوفًا على ابنته .. ولذا .. انقطع الصَمت الذى يحيط بالمكان بسبب أصواتنا العالية .. والتى تنادى فى كل اتجاه ..

ـ (ناتاشا) .. (ناتاشا) ..

★ ★ ★

٧ـ أصـــل القصـــة ..

« أنا هنا .. »

صاحت (ناتاشا) فى أمل .. ولكن الصوت صادر من داخل الكهف .. هرولت إلى مدخل الكهف مع الجميع .. ودخلناه برغم الظلام ..

ـ (ماردينى) .. هلا أحضرت عدة كشافات ..

ـ لحظات وآتى بها ..

فعلاً لم تمر لحظات حتى أتى بثلاثة كشافات قوية .. أحالت ظلام الكهف إلى نهار جلىّ ..

وبينما كنا نخطو خطواتنا الأولى فى الكهف .. تعالى صوت الدكتور (ميشيل) ..

ـ (ناتاشا).. أين أنت ؟

كان صدى صوت الدكتور كافيًا بإزالة الرهبة من قلوبنا .. والتقدم أكثر .. لذا .. صحت أنا مكرّرًا نداء الدكتور ..

ـ أين أنت يا (ناتاشا) ؟

جاءنا الرّد بسرعة ..

ـ أنا هنا .. بالأسفل ..

توقفت فورًا لسماع تلك الكلمة .. ورفعت ذراعىَ مانعًا بقية الأفراد من التقدم .. ثم وجهت ضوء الكشّاف لأسفل منى .. فرأيت ما توقعته .. إنها حافة تنحدر إلى عمق لا يقل عن ثلاثة أمتار .. حمدًا للّه على أننى لم أتقدم أكثر .. حيث إننى استأذنتهم للرجوع خطوتين .. حتى أقف مطمئنًا وسلطت الضوء على وجه (ناتاشا) البائس .. حين سألها أبوها فى لهفة :

ـ لماذا تركتنا ودخلت الكهف ؟

أجابت وهى على وشك البكاء :

ـ أبى .. لقد كُسرت ساقى ..

★ ★ ★

حاملين (ناتاشا) أنا و (ماردينى) خرجنا بها من الكهف .. حتى ذهبنا بها للسيارة ووضعناها برفق على الأريكة الخلفية .. حيث جلس والدها بجوارها ليطمئن عليها .. ولكن ذلك الطبيب الشاب قد استأذنه حتى يعالج كسر ساق (ناتاشا) .. حيث وضع على ساقها عصًا خشبية وربطهما معًا حتى تظل ساق (ناتاشا) مفرودة ..

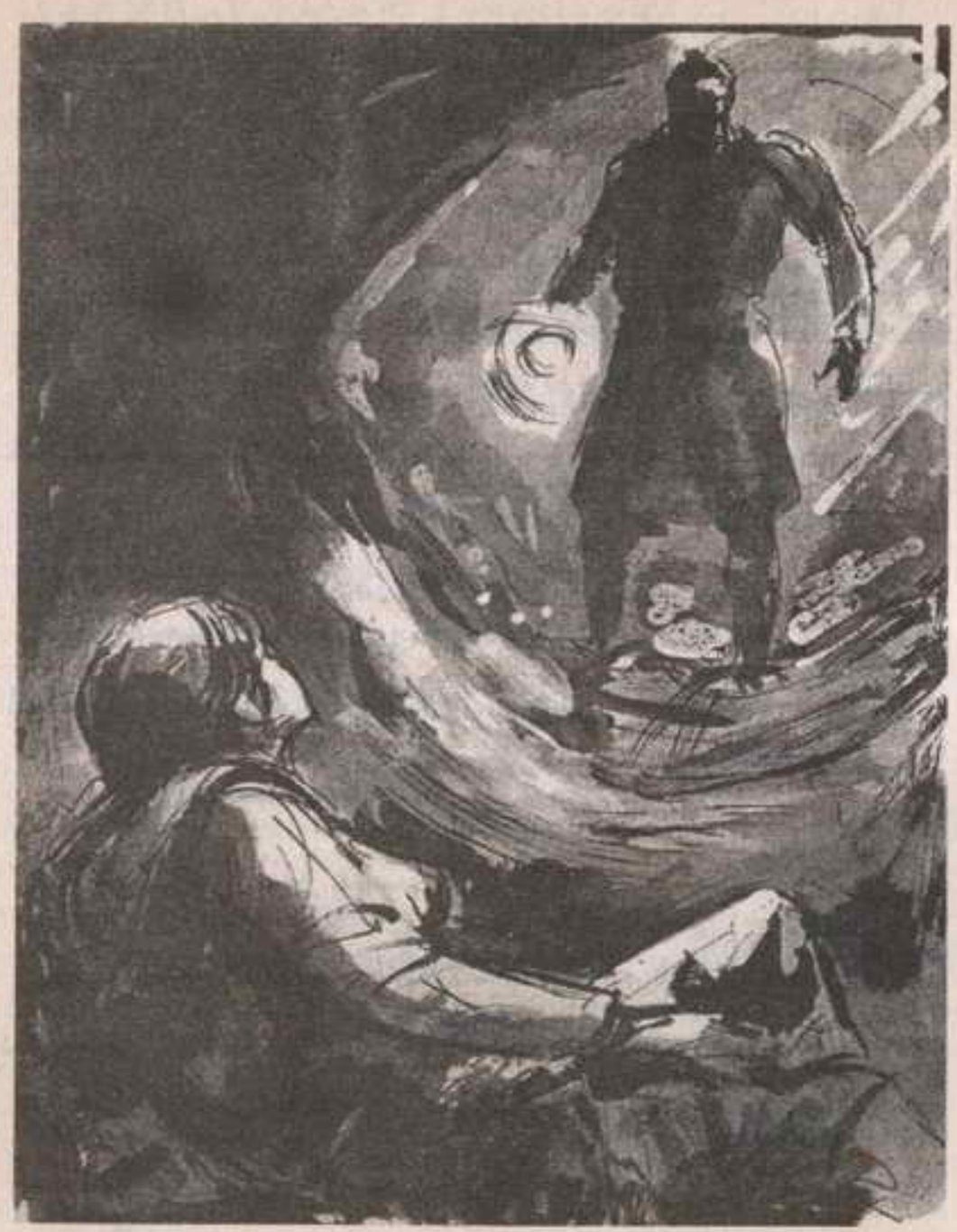

حمدًا للّه على أننى لم أتقدم أكثر .. حيث إننى استأذنتهم للرجوع خطوتين .. حتى أقف مطمئنًا ، وسلطت الضوء على وجه (ناتاشا) البائس ..

طوال الطريق لم أستطع أن أركّز انتباهى فى الخريطة .. وذلك بسبب بكاء (ناتاشا) وعتاب أبيها لها .. وبعيدًا عن تلك السيمفونية .. كان (ماردينى) يحدثنى فى شغف :

ـ منذ سنوات رافقت الدكتور (ميشيل) فى التنقيب عن آثار المملكة المفقودة .. ولكن الحظ لم يحالفنا إلاّ فى اكتشاف اللوح الخشبى ..

ـ هذا جيد ..

ـ وعندما فشل الدكتور (ميشيل) ومساعدوه فى معرفة اتجاه رحيل المملكة .. أصبح اللوح الخشبى بلا قيمة ..

ـ والآن أصبحت قيمته عظمى ..

ثم ملت على أذنية هامسًا :

ـ وأرجوك .. لا تذكر محاولات دكتور (ميشيل) مرة أخرى .. دعنا نفكر فيما سنفعل الآن ..

أجابنى هامسًا :

ـ أمرك ..

★ ★ ★

وقت الغروب .. انتقينا مكانًا جيدًا تحت سفح ذلك الجبل القصير .. حتى نبيت تلك الليلة .. بعد أن انتهينا من الاستدلال على الرسم السابع .. ولأن (ناتاشا) لم تعد كما كانت .. قرر الطبيب أن تبقى فى السيارة بلا حراك .. تأكل وتنام بداخلها .. وبالتالى اضطررت أن أجلس مع أبيها فى السيارة حتى يغلبها النوم .. لقد أصبحت مثل جليسة الأطفال .. لا بأس ..

سألتنى (ناتاشا) .. فى خجل :

ـ هل تقول فى نفسك الآن : لماذا أخذنا تلك الفتاة الشقية معنا ؟

ـ كلّنا نخطئ يا (ناتاشا) .. ولكن المهم أن نتعلم من أخطائنا ..

مسّ كلامى إحساسها .. فاستدركت قائلاً :

ـ ألا تريدين معرفة باقى القصة ؟

تهلّل وجهها .. وأومأت برأسها .. وكأنها طفلة صغيرة .. تحب سماع القصص والحكايات التى تقوم بدور حبّة المنوم .. المهم .. أكملت حديثى السابق ..

ـ قلنا إن الجواسيس أرسلوا معلومات غاية فى الغرابة عن تلك المملكة .. فقد كان هذا الشعب من الأقزام فى غاية العبقرية ..

سألتنى (ناتاشا) :

ـ كيف ؟

ـ لقد عاشوا فى بيوت من الخشب ..

فغرت (ناتاشا) فاها فى ذهول .. وقالت :

ـ من الخشب ؟!

ـ نعم .. والأغرب من ذلك أن تلك البيوت كان يمكن فكّها وتركيبها مرة أخرى ..

كانت (ناتاشا) تستمع لى غير مصدقة لأى حرف مما أقول .. والغريب أننى اكتشفت عدم معرفتها بتلك التفاصيل .. حيث كان أبوها هو رئيس مشروع التنقيب عن مملكة (جورناكوف) .. ولكن الذى استنتجته .. هو أن أباها لم يحك لها عن تلك المملكة محاولاً إقناعها بعدم وجود ذلك الشعب ..

سألتنى (ناتاشا) :

ـ وكيف صنعوا تلك البيوت ؟!

ـ هذا لم يرد ذكره فى أى من النصوص المغولية ..

ـ ولماذا صنعوها ؟!

رد الدكتور (ميشيل) :

ـ لأنهم شعب من الأقزام .. ضعفاء .. بين أقوام .. وممالك قوية .. لذا .. فقد استفادوا من تلك الفكرة مرة واحدة ـ على ما أعتقد ـ فى حياتهم .. عندما علموا بأمر المغول ..

ـ وكيف استفادوا منها ؟!

ـ عندما وصلت لهم أخبار من التجّار الرحّالة أن هناك قومًا يتصفون بالهمجية .. يهاجمون أى قرية تجاورهم .. وكل قبلية يعرفونها .. حتى عظمت قوتهم ..

قالت :

ـ هؤلاء المغول هم أجداد كل غازٍ وطاغية .. مثل هتلر وموسولينى ..

قال د. (ميشيل) :

ـ وعندما انتهى المغول من القضاء على ممالك شرق ووسط آسيا .. اتجهوا إلى الغرب والشمال ..

ـ وماذا فعل (جورناكوف) وشعبه ؟

شرد بصرى برهة .. ثم شبكت أصابعى .. وأردفت :

ـ لم يجد غير أن يرسل ابنه مع مجموعة من الحراس حتى يأتى له بالخبر اليقين .. واتفق معه على مُهلة قدرها شهر واحد .. إن لم يعد الابن بعدها .. سيهاجر (جورناكوف) وشعبه ..

عادت (ناتاشا) كعادتها تسأل فى اهتمام :

ـ وهل استطاع الجواسيس معرفة كل هذا ؟

ابتسم من كلامها .. وأردفت :

ـ هذه كانت مهمتهم ..

ـ حسن .. أكمل .

★ ★ ★

اعتدلت فى جلستى .. وقد قاربت الساعة على التاسعة مساء .. آه .. إن الوقت يمر بسرعة ..

ـ وذهب الابن فى مهمة نبيلة من أجل وطنه .. ولكن ..

قاطعته (ناتاشا) :

ـ ولكن ماذا ؟

فى حركة سريعة .. فتحت باب السيارة .. وخرجت .. ثم عدت أطل من نافذة (ناتاشا) .. قائلاً :

ـ ولكن هناك وقت آخر أستطيع أن أكمل فيه بقية القصة ..

قالت متعجبة :

ـ هكذا !!!

ـ اعذرينى .. تصبحين على خير .. أحلام سعيدة ..

ثم ترجّلت حتى الخيمة البلاستيكية .. وقد لحق بى الدكتور (ميشيل) بعد أن قبّل ابنته .. وبعد أن دخلت الخيمة .. بدأت فى تخفيف ملابسى التى أشبه وأنا أرتديها أحد المصارعين الرومان .. حين سألنى (ماردينى) :

ـ هل يمكننا إنهاء المهمة غدًا ؟

ـ أتمنى ذلك ..

استلقى الدكتور (ميشيل) على فراشه مشتركًا معنا فى الحديث :

ـ بقى خمسة رسوم .. يتوزعون على مسافة لا تقل عن سبعمائة كيلومتر ..

ـ إن غدًا لناظره قريب ..

★ ★ ★

٨ـ فى أثناء الطريـق ..

صباح اليوم الثالث للرحلة ، ونحن فى طريقنا لاكتشاف مدلول الرسم الرابع على الخريطة ، وهو جبل يبدو أنه صغير ووحيد فى تلك المنطقة .. حيث لا تحيطه فى الخريطة أى جبال ..

وحتى لا نضيع الوقت أكثر ؛ كنا نتناول إفطارنا فى السيارات ، وبينما أتناول القهوة ، قالت (ناتاشا) .. فى أثناء عبورنا لجسر نهر (ياتسى) :

ـ هل يمكننا حصر تلك الرسوم اليوم ؟

ـ لقد سألنى (ماردينى) نفس السؤال بالأمس ..

ـ وبم أجبته ؟

تطلعت قليلاً إلى تلك المرتفعات البيضاء .. ثم أردفت :

ـ هناك موانع كثيرة تعوق سرعتنا .. تلك الأرض الجليدية الوعرة ، والعواصف ، والنهار القصير ..

قال د. (ميشيل) :

ـ هذا صحيح ، لو كان النهار أطول قليلاً .. لكنا وجدنا موقع المملكة اليوم ..

فقال (ماردينى) :

ـ سنتوقف الآن .. يبدو أن الوقود قد قارب على النفاد ..

توقفت السيارة .. وتوقفت بقية القافلة .. وخرجت أساعد (ماردينى) .. الذى قال :

ـ قبل ملء السيارة بالوقود مرة أخرى يجب أن ندع المحرك يستريح قليلاً ..

ـ هذا أفضل ..

ثم اتجه إلى خلفية السيارة .. وأخرج سلسلة مفاتيح .. فتح بأحدها مزلاج الخلفية .. فظهرت ثلاثة عبوات كبيرة .. عليها رُسمت نقطة بترول كبيرة .. يبدو أنه الوقود .. وبعد أن تناول إحدى العبوات .. سألته :

ـ وكم ستكفينا تلك العبوة ؟

نظر لى مبتسمًا .. ثم قال :

ـ تلك العبوة !! إن الألف وأربعمائة كيلومتر التى قطعناها لم تستهلك غير عبوة ونصف .. والذى أمسكه بيدى الآن هو النصف الآخر من العبوة ..

اندهشت لكلام (ماردينى) ، فأردف :

ـ إن هذه السيارات ليست كالسيارات الأخرى يا دكتور (شريف) ..

ـ وكم يبلغ ثمن السيارة الواحدة ؟

رد (ماردينى) :

ـ حوالى .. ثلاثة ملايين دولار ..

قلت فى نفسى : ياه .. إن هذا المبلغ يكفى لإقامة قاعدة استكشافية فى مصر .. أو بالأحرى .. يكفى لشراء أكثر من عشر سيارات فاخرة ..

★ ★ ★

الساعة تقترب من الحادية عشرة .. وقد انتهينا من رؤية الرسم الثامن .. آه .. بقى أربعة .. أحسست بألم فى عينى .. من جرّاء التطلّع المستمر فى الخرائط .. دلكت عينى برفق .. فجاءنى صوت (ناتاشا) الرقيق :

ـ كفى يا دكتور .. إن الرسم التاسع لن نراه إلا بعد نصف ساعة على الأقل ..

ـ آه .. لك الحق فى ذلك ..

قال د. (ميشيل) :

ـ انظر إلى تلك الجبال البيضاء الشاهقة .. سوف تنسى كل شىء ..

ـ ولكنى لا أريد أن أنسى المملكة ..

ضحك الجميع لبرهة .. ثم عادت (ناتاشا) تقول :

ـ هل تعلمون أن الثلج ليس كما يقول الناس هو المطر المتجمد ؟

ـ كيف ؟ وهل هناك قول آخر ؟

ـ نعم .. حيث إن الثلج لا يمر بحالة السيولة بتاتًا ، وإنما ينجم عن تكاثف بخار الماء العالق فى الهواء على صورة بللورات من الثلج مباشرة(★) ..

قلت وقد بدأ حديث (ناتاشا) يثير غريزتى العلمية :

ـ أكملى يا (ناتاشا) .. أكملى ..

ـ حسن .. عندما يُفحص الجليد تحت المجهر تبدو بللورات الثلج الصغيرة كالصفائح المختلفة الجميلة المنظر(★) ..

ـ صفائح ؟!

(★) حقائق ..

- نعم .. وبندر أو يكاد يستحيل أن تتشابه بللورتان منه تشابهًا تامًا(*) ..

- مثل بصمة الإصبع ..

- بالضبط .. وقد يحدث أحيانًا أن تنمو صفائح الثلج كثيرًا .. ولعل أكبر ما رُصد منها قاطبة فى (ماتاتا) عام ١٨٨٦ م فى مكان يقال له (فورت كبوغ) ، فلقد هطل بعضها فى أرض خالية بالقرب من ذلك المكان فكونت بقعًا واسعة بيضاء ، بلغ عرض الواحدة منها ٣٧,٥ سنتيمتر وسمكها ٢٠ سنتيمترًا(*) .

- ياه ..

- ورصدت أيضًا من أماكن أخرى صفائح من الثلج كانت الواحدة منها تملأ قدح الشاى(*) ..

★ ★ ★

لقد استطاع حديث (ناتاشا) أن يلتهم الوقت التهامًا ..

ها نحن أولاء نقف بسياراتنا أمام تلك السلسلة الجبلية الصغيرة .. حقًا .. كما توجد بالخريطة .. إن (جونار كوف) هذا عبقرى .. لقد استطاع أن يحسب المسافات ، والزوايا بدقة متناهية .. هذا هو الملك الحقيقى ..

(*) حقائق ..

وضعت علامة (✓) بجوار الرسم على الخريطة .. أقصد على الصورة التى التقطناها للخريطة .. حيث إن الخريطة الأصلية شبه - أو هى فعلاً - مهترئة .. وهذه الصورة هى نسخة منها بنفس مقياس الرسم ..

واصلنا السير .. إلى مدلول الرسم العاشر .. ولم تتعد الساعة الثانية عشرة والنصف .. هذا جميل .. حيث إننا نستطيع الوصول لموقع المملكة قبل الظلام .. أخيرًا .. تحقق الحلم .. أو على وجه الدقة .. اقترب من الحقيقة .

★ ★ ★

طبعًا حتى لا نملّ من طول الطريق .. طلبنا من (ناتاشا) أن تواصل حديثها الممتع عن الجليد .. لقد كانت تتكلم وهى مستلقية على الأريكة بسبب قدمها المكسورة .. أو .. بسبب فضولها :

- فى الأجواء الباردة جدًا كما هو الحال فى عواصف الثلج ، يتساقط ثلج صغير الحجم مثل المسحوق تبعثره الرياح ، فيتطاير فى الجو ويسبب الاختناق للناس والحيوانات ، حيث ..

صمتت (ناتاشا) بسبب ارتفاع شخير أبيها الذى استغرق فى النوم .. حين قال (ماردينى) :

ـ السن لها أحكامها ..

عادت (ناتاشا) تواصل ..

ـ لا عليكم .. لن ينام طويلاً .. دقائق ويستيقظ .. المهم .. ماذا كنت أقول ؟ إممم .. آه .. على الرغم من أن الثلج قليل الوزن فهو قد يتراكم فى المناطق الجليدية ويسدّ الطرق ، ويكون تلالاً يتجمع عليها الثلج إلى ارتفاعات شاهقة تنهار فى قوة وعنف ، فتجتث الأشجار ، وتجرف أمامها المبانى والمنشآت(*) ..

أكمل (ماردينى) :

ـ وتصرف الحكومة ملايين الدولارات فى تشييد الحواجز من أجل حماية المدن والطرق وخطوط السكك الحديدية من أخطار الثلوج المنهارة(*) ..

لم تغب عينى عن متابعة تضاريس الطريق .. برغم حديث (ناتاشا) المستمر .. تناولت الخريطة مرة أخرى .. وبعد فترة تفكير لم تدم ثوان .. قلت :

ـ أعتقد أن الانحراف يسارًا بعد الهضبة القادمة سيكون أفضل .. حيث مدلول الرسم العاشر ..

(*) حقائق ..

بالفعل انحرف (ماردينى) بعد أن تخطينا الهضبة .. فوجدنا ما كنّا نتوقعه .. إنه مدلول الرسم العاشر .. وهى ربوة عريضة يكسوها الجليد .. ابتسمت وأردفت :

ـ هل يمكنك عبورها يا (ماردينى) ؟

ـ سأحاول ..

★ ★ ★

المساء .. للأسف ، انتهى اليوم بدون أن نصل للرسم الأخير .. لقد استطعنا اكتشاف أحد عشر رسمًا .. وبقيت مسافة لا تقل عن المائتى كيلومتر ..

عقارب الساعة تشير إلى السابعة والربع مساءً .. وبعد أن طلبت من (ماردينى) أن يتصل بالقاعدة .. تناولت منه سماعة الهاتف .. وتحدثت مع سيادة المدير ، وأبلغته أن يبشّر وزير الثقافة باقترابنا من الموقع .. وعندما سألنى عن سلامة أفراد الرحلة ، أخبرته أن كل فرد على ما يرام .. حيث لم أستطع أن أثير قلقه بخبر كسر ساق (ناتاشا) .. فلنجعل ذلك يتم عند المواجهة المباشرة .. وعندئذ سيذوب هلعه عندما يعرف أمر اكتشافنا لموقع المملكة .. مملكة (جورناكوف) ..

★ ★ ★

٩ ـ الوصـــول ..

« حسن .. أين توقّفتُ .. » ؟

قلت هـذه العبـارة عندمـا سألتنى (ناتاشـا) أن أكمل قصـة شعب المملكة المفقـودة .. حيث دار ذلك الحديث بعد اتصالى بمدير القاعدة ..

فردت (ناتاشا) :

ـ توقفتَ عند إرسال (جورناكوف) ابنه لتقصّى أمر جحافل المغول ..

ناولنى (ماردينى) كوب القهوة عبر النـافذة .. ثم اعتدلت فى جلستى ورشفت قليلاً .. ثم بدأت حديثى :

ـ علم الجواسيس بالأمر .. فأرسلوا إلى اتباع (جنكيز خان) ..

حينئذ وضعت (ناتاشا) راحة يدها فوق فمها وقالت :

ـ أوه ..

رشفت رشفة أخرى .. ثم أردفت :

ـ قام أتباع (جنكيز خان) بقتل الولد ومن معه ..

ـ ولم يدرك (جورناكوف) ..

ـ بالضبط .. وانتظر عودة ولده طوال المهلة المتفق عليها .. والتى كانت شهرًا .. قرّر أن يترك لـه علامـة تدلـه إلـى المكـان الجديد للمملكة .. وذلك بعد أن يستقّروا فى ذلك المكان .

ـ أى أنه بعث رجلاً يغرس اللوح الخشبى ..

ـ هذا صحيح .. ولكن بعد أن يأتى المغول ولا يجدوا أى أثر لهم ..

ـ ياه .. إنها رحلة طويلة حقًا ..

ـ بوساطة الخيول كان الأمر أسهل بالطبع ..

ـ لا تقل إنهم كانوا يجيدون ركوب الخيول أيضًا ..

ـ هذا مكتوب فى النصوص .. ولم أبتدعه أنا ..

ـ وكيف لم يتحرك اللوح الخشبى من مكانه برغم الرياح ؟

رد الدكتور (ميشيل) :

ـ فى الغالب أنه كان مغروسًـا فـى الأرض علـى عمـق كبـير حتى يظل ثابتًا فى مكانه .. وبذا .. يأتى الولد ويستخرج اللـوح من الأرض ويستدل على مكان أبيه ..

تنهدت (ناتاشا) فى عمق .. ثم قالت فى أسى :

ـ مسكين هذا الولد ..

ـ مسكين كل من وقف فى طريق جحافل المغول ..

★ ★ ★

« والجواسيس ! »

قالت تلك الكلمة (ناتاشا) متسائلة .. فأجبتها :

ـ صحيح أننا لم نعلم مصيرهم ، ولكن يمكننا استنتاجه ..

ـ كيف ؟!

ـ لقد فشل المغول فى القضاء على تلك المملكة ، وهذا ما قد ورد ذكره فى رسالة القائد (شورنكاى) للخان الأعظم .. وهذا يدلّ بدوره على عدم علم المغول بأى شىء عن رحيل المملكة ..

ـ وماذا يمكننا أن نستنتج من ذلك ؟!

أجاب د . (ميشيل) :

ـ أن (جورناكوف) اكتشف وجود الجواسيس وقام بقتلهم ..

فالقت (ناتاشا) :

ـ لو أن ذلك حقيقى .. سأستريح كثيرًا ..

ـ وأنا أوافقك الرأى ..

ـ سوف نرى ..

★ ★ ★

صباح اليوم الرابع للرحلة .. السيارات تنطلق وراء سيارتنا ، وكأنها تتبعها فى فضول .. وسيارتنا تسابق الزمن .. نحن على حافة المجد .. أو على وجه الدقة .. نحن نصعد سلم الحقيقة .. لنفتح بابًا آخر .. مكتوب عليه « حقيقة مملكة (جورناكوف) » .. نسعى لأن ندخله .. نرى ماذا يكمن وراءه ؟

عيناى مثبتتان على كل جزء من الخريطة .. أو كل جزء بقى فى الطريق .. أقارنه بما أراه خارج نافذة السيارة .. آه .. نحن آتون يا (جورناكوف) .. لن تهملك كتب التاريخ مرة أخرى .. ولن ينكر وجودك أحد بعد الآن ..

الساعة تشير إلى العاشرة والثلث صباحًا .. والصمت .. الصمت فقط هو اللغة الرسمية بيننا .. كلنا نفكر .. كلنا نأمل .. كلنا ننتظر ظهور الرسم الثانى عشر .. أقصد ظهور ذلك الوادى بين هذين الجبلين ..

المسافة المتبقية لا تزيد على المائة كيلومتر .. أى أن الوقت المتبقى لن يزيد على الساعتين .. إذن .. الساعة الثانية عشرة والثلث سيحين الموعد .. الموعد الذى سنصافح فيه التاريخ ..

★ ★ ★

السيارات تلتهم الطريق ، والوقت يلتهم تفكيرنا ، وقلبى يكاد ـ من كثرة نبضه ـ يقفز متحركًا من مكانه ، لولا أننى أغلق فمى ..

الساعة تشير إلى الحادية عشرة والنصف ..

بدأت أسئلة الدكتور (ميشيل) و (ناتاشا) و (ماردينى) تكثر .. وأنا فى حال يرثى له .. فهل يرحموننى ؟!

الساعة تشير إلى الثانية عشرة بالضبط ..

يداى ترتعشان .. لماذا ؟! ألا تستطيع البقاء صلبًا يا (شريف) ولو ثلث ساعة ..

الساعة تشير إلى الثانية عشرة والربع ..

الآن أغلق عينى .. طالبًا من (ماردينى) بصوت لا يكاد يُسمع أن يقف بعد الانحراف القادم ..

السيارة تتوقف .. وبقية السيارات كذلك .. ولكن أين ؟ نحن الآن على بعد حوالى المائة متر عن هذا المشهد .. وما هو ذلك المشهد ؟ إنه الجبلان .. وبينهما ذلك الوادى .. الذى يوجد مثله بالضبط على الخريطة .. أستطيع أن أقول الآن :

لقد وصلنا ..

حاولت التغلب على فرحتى كما فعل بقية أفراد الرحلة .. حين أحضرنا صندوقًا من الديناميت وجهاز التتبع من السيارات التى أوقفناها بعيدًا .. حتى لا تتأثر بالانفجار ..

وبعد لحظات من تشغيل جهاز التتبع صدر أزيزه بشكل قوى .. فتعالت صيحات النصر .. وقال الدكتور (ميشيل) :

ـ كنت أتمنى أن تشترك معنا (ناتاشا) ..

ـ هى ترانا الآن من داخل السيارة .. ولكنى أعدك بعدم ترك هذه البقعة إلاَّ بعد أن تقف (ناتاشا) فوقها .. ولو بالقدم السليمة ..

ـ هذا شعور طيب منك يا دكتور ..

أمسكت يده حتى أشُدَّ من أزره .. ثم التفتَ إلى العمال قائلاً لهم :

ـ قوموا بزرع الديناميت على عمق حوالى أربعة أمتار فى مركز هذه البقعة .. حتى نقترب أكثر من تلك الآثار ..

غمغم الدكتور (ميشيل) وكأنه يستأذننى :

ـ سأذهب لأبشر (ناتاشا) .. وأعود بعد أن ينتهوا من زرع الديناميت ..

ـ كما تحب ..

وبعد أن مضى الدكتور (ميشيل) .. أتانى الخبير الجيولوجى وقال لى :

ـ أود أن أخبرك بشىء ..

ـ تفضّل ..

ـ هذه الأراضى هشة الثلوج ..

دنوت منه أكثر .. وسألته فى اهتمام :

ـ وماذا فى ذلك ؟

ـ يمكن أن يحدث انهيار جليدى ..

ـ أتقصد بسبب التفجير ؟

ـ نعم .. ولكن إلى أى عمق سوف نستخدم الديناميت ؟

ـ حوالى ستة أمتار ..

ـ لهذا كنت سأقترح عليك التفجير على مراحل ..

ـ وما رأيك فى أن تكون كل مرحلة على عمق مترين ؟

ـ ليس سيئًا .. ولو أنى ..

ـ ماذا ؟

ـ لا شىء ..

اندهشت من صمته وأشرت للعمال بما قد اتفقنا عليه .. لكن (ماردينى) سألنى :

ـ لماذا لا نستخدم الحفّارات الحلزونية وإسقاط الديناميت على عمق ستة أمتار .. حتى نصل بسرعة إلى أقل مسافة ؟

وضحت له رأى الخبير الجيولوجى فى هذا الأمر .. بينما وقفت أنا أتذكر ما علّمنى إيّاه الأستاذ (كمال) .. أن أبجّل اثنين : مَنْ أكبر منّى سنًّا .. ومن أكثر منّى علمًا ..

عاد الدكتور (ميشيل) لاهثًا .. وهو يقول :

ـ هاه .. هل تم زرع الديناميت ؟!

أخبرته بالأمر .. صحيح أن وجهه تجهّم من أول وهلة .. إلاّ أنه اقتنع بكلامى .. ثم وقفنا نحن الاثنين بعيدًا عن مكان إجراء التفجير .. وبالفعل تطايرت الثلوج مرتفعة بعد أن ضغط (ماردينى) على زرّ جهاز التفجير .. حين سمعت صوت الدكتور يقول :

ـ أنا لا أصدق أننا نقف الآن فوق مملكة (جورناكوف) .

ابتسمت لكلامه وأنا أتابع سير العمل .. ولكن .. ولكن حدث شىء غريب .. وخطير ..

★ ★ ★

١٠ ـ الانهيـــــار ..

« كررراك »

صوت غريب .. أليس كذلك ؟ ولكن هذا مـا سـمعناه .. والذى سمعه الخبير الجيولوجى أيضًا حين هرول إلـى العمـال يأمرهم بالتوقف عن الحفر .. ثم عاد إلىّ يخبرنى .. فى فزع ..

ـ يبدو أن هناك انهيارًا جليديًا قادم ..

لـم يكد يكمـل عبارتـه .. حتـى رأينـا تلـك القطـع الجليديـة الصغيرة ، والتى تهوى من فوق قمـة الجبـال التـى خلفنـا .. أو بمعنى آخر .. التى تقف تحت سفحها سياراتنا الاستكشافية ..

لم تلبث تلك القطع الجليدية الصغيرة أن اصطدمت فى أثنـاء سقوطها بقطع أكبر .. وأكبر .. فبدأ سقوط تلـك القطـع الثلجيـة كأنها شلال من الجليد يصب فوق أسقف عرباتنا ..

كان المنظر مفزعًا حقًا .. ونحن نشاهده مـن بعيد .. ولكـن لماذا وقفنا مثل التماثيل الحجرية لا نحرك ساكنًا ؟! لا أعرف .. كل ما أعرفه أن الدكتور (ميشيل) ركـض فـى هلـع .. يصـرخ بأعلى صوته :

ـ (ناتاشا) .. (ناتاشا) ..

أفقت من ذهولى .. وركضت خلف الدكتـور .. حـاملاً جهـاز التتبع فى يدى .. أمّا الآخرون .. فبعد أن حاولوا منعـى قـائلين فى لهجة محذرة :

ـ سوف تُدفن حيًا ..

لم أكترث لهذه العبارة الغبيّة .. وركضت .. ركضت .. حتـى سبقت الدكتور .. وعندما اقتربت من السيارة التى ترقد بداخلهـا (ناتاشا) .. كان الانهيار قد وصل إلى ذروته ..

★ ★ ★

كان عقلى فى تلك اللحظة متوقفًا عن التفكير .. ماذا أفعل ؟! إن (ناتاشا) تبدو من نافذة السيارة فزعة .. مصفرّة الوجه .. شعرها مبعثر على جبينها .. وتتلفظ بأشياء لم أسمعها .. مؤكـد أنها تستغيث ..

وبعد أن وصل الدكتور إلى نفس المسـافة .. كـانت السـيارة يكسوها الجليد المتساقط شيئًا فشيئًا .. ماذا أفعل ؟! ماذا فعل ؟! آه .. لا يوجد غير ذلك .. سحبت الدكتـور (ميشـيل) مـن يـده ودخلنا منطقة الخطر .. كان الجليد يتساقط من حولنا مثل السّيل .. ولكن هيهات فى التشبيه ..

وصلنا بأعجوبة إلى العربة .. فقلت للدكتور :

أفقت من ذهولى .. وركضت خلف الدكتور .. حاملاً جهاز التتبع فى يدى ، أما الآخرون .. فبعد أن حاولوا منعى قائلين فى لهجة محذرة : سوف تُدفن حيًا ..

ـ ادخل السيارة ..

أطاعنى بلا تردد .. وهذا ما كنت أريده .. ألقيت بجهاز التتبع .. ثم فتحت باب السيارة .. وبأقصى سرعة قفزت بداخلها .. وأدرت المفتاح .. فبدأت السيارة تتحرك .. حين سمعت تشجيع المجموعة من الخارج .. هيّا .. عجلة القيادة تهتز فى يدى .. وأنا أتقدم بالسيارة .. والجليد يصطدم بسقف العربة فى قوة .. حتى جاءت هذه الكتلة الجليدية البدينة .. والتى سقطت أمام مقدمة العربة التى توقفت .. حاولت دفعها بلا فائدة .. وبعد ذلك توالى سقوط الجليد بسرعة رهيبة ..

السيارة تهتز من شدة ارتطام الجليد بها .. ومشهد العمال و(ماردينى) يختفى شيئًا .. فشيئًا .. حتى إذا حلّ الظلام التام .. ساد الصمت إلا من صوت تلك القطعة الثلجية الصغيرة ، والتى سقطت فوق سقف العربة لتعلن نهاية الأمر .. وتعلن شيئًا آخر .. صدق تحذير المجموعة .. لقد دُفنّا أحياء .. كما قالوا بالضبط ..

* * *

الظلام .. والصمت .. هما اللذان سادا فى تلك اللحظات ..

وبعد برهة من اللهاث .. بدأت أتكلم بصوت هادئ تكسوه الثقة .. فسألت الدكتور (ميشيل) :

- أين زرّ الإضاءة الداخلية للعربة ؟

أجابنى غاضبًا :

- يسارًا أسفل مغيّر السرعات ..

بحثت بأناملى حتى وجدتـه .. ضغطت عليـه .. فكـان الأمـل مرة أخرى .. والذى نسجه الضوء المنبعث من أرجاء السيارة ..

والآن أرى كل شىء بوضوح .. حتى تلك الثلوج المنهارة .. والتى تكدّست على الزجاج الأمامى والجانبى ..

أغمضت عينى برهة .. حتى أفكر مليًا .. حين سألنى الدكتور (ميشيل) معاتبًا :

- هل ستنام بعد كل هذا ؟

أجبته دون أن أفتح عينى :

- أنا أفكر ..

- وأين كان عقلك عندما طلبت منى دخول السيارة ؟

- دكتور .. ليس هذا وقت العتاب .. حاول أن تفكر معى .

- (شريف) .. هل يمكننا النجاة حقًا ؟

فتحت عينى ونظـرت إلى عيون الدكتـور .. من خـلال تـلك المرآة الصغيرة .. والمعلقة فوق تابلوه السيارة .. وسألته :

- هل تثق بى يا دكتور ؟

صمت لحظة وهو ينظر إلى (ناتاشا) فى حنـان .. ثم عـاد ينظر إلىّ ويقول فى جديّة :

- نعم .. أثق بك ..

★ ★ ★

بضغطـة صغيرة علـى زرّ فتـح النـافذة إليكترونيًـا .. بـدأت النافذة تُفتح ولكن بسرعة بطيئة .. بسبب هذا الجليد المتراكم عليها .. والذى بدأ فى دخول السيارة من كثرة الضغط ..

بحثت فى كل مكـان بالسيارة عـن أى آلـة حـادة .. ولكـن باءت محاولاتى بالفشل .. ولكنى اكتشفت ذلـك الـزرّ .. فسـألت الدكتور :

- هناك .. ذلك الزرّ .. إلام يؤدى ؟

- لا أعرف .. لا أعرف ..

ضغطت عليه فى حذر .. وانتظرت .. فوجدت تلك الفتحة الصغيرة التى فتحت أسفل مقعد القيادة .. ولكن .. ليس بها شىء ..

لم أجد أمامى غير تلك البندقية المثبتة أسفل عجلة القيادة .. تناولتها .. فسألنى الدكتور :

- ولكن .. إن حفر النفق سيؤدى إلى ملء العربة بالثلوج .. ولاندرى بعد أى مسافة سوف نصل للخارج .. كيف سنتصرف حينئذ ؟

ـ التفكير فى تلك الأمـور سيقيد حماستنـا .. فلنفعـل كـل ما نستطيع عمله ..

وقبل أن أشرع فى حفر نفق الخروج .. تذكرت شيئًا مهمًّا .

ـ دكتور .. سوف أتصل بالقاعدة ..

ـ آه .. فعلاً .. كيف نسينا الهاتف ؟!

ـ أخبرنى بالرقم .. ربما يأتون لنا بأية نجدة .

ثم قال لـ (ناتاشا) التى بدأت تعود لطبيعتها :

ـ لا تقلقى يا صغيرتى .. الأمر بسيط .. كـل مـا هنـالك أننـا سننتظر هنا قليلاً ..

ضغطت على هذه الأرقام .. واتصلت بالقاعدة .. فأتانى صوت ضعيف جدًا .. طلبت من المتحدث أن يصلنـى بـالمدير .. وبعد تكرارى لذلك مرارًا .. استطاع أن يفهم كلامى .. وأوصلنى بالمدير ..

ـ آلو .. مدير قاعدة (أومسك) ..

ـ نعم ..

ـ أنا الدكتور (شريف) ..

ثم أخبرتـه بتفـاصيل الموقـف .. ولكـن بعد عنـاء .. بسبب ضعف الاتصـال بينـه وبينـى .. وبعد لحظات وضعت السماعة .. حين سألنى الدكتور (ميشيل) فى لهفة :

ـ بماذا أخبروك ؟

ـ سوف يتصرفون .. هذا ما أخبرنى به المدير ..

★ ★ ★

« ماذا ؟ »

قلت تلك العبارة فى دهشة ، وأردفت :

ـ ولكن الأكسجين الموجود فى العربة سينفد خلال ربع الساعة .

ـ هناك أكسجين احتياطى .. ولكن ..

ـ ولكن ماذا ؟!

ـ لا يكفى إلا لساعة من الزمن ..

ـ لن ننتظرهم .. سوف أحفر ..

ـ ولكن ..

ـ سوف أحفر ..

وبكـل قوتـى أمسـكت بـذراع البندقيـة .. وبـدأت أضـرب بماسورتهـا تـلك الثلوج من خـلال النـافذة الجـانبية .. إن ذلك الجليد صلب حقًا .. ولكن ليس هنـاك حل آخر .. وكلما أضرب ضربـة .. يتسـاقط الثلـج داخل العربـة فـى غزارة .. أرجـو أن نخرج من هنا قبل أن تمتلئ العربة بالثلوج ويسوء الموقف أكثر ..

★ ★ ★

وفى الخارج .. فى الوقت ذاته ..

يقول (ماردينى) :

ـ لماذا لا نستخدم الديناميت ؟

فيرد عليه الخبير :

ـ يمكن أن يزداد الانهيار .. أو ينالهم أذى ..

ـ العربة مصفحة ..

ـ أنا آمرك بعدم استخدام الديناميت ..

ـ لو كان دكتور (شريف) ترك جهاز التتبع معى .. كنت سأعرف مكانه .. وكنا سنحفر لنستخرجه ..

ـ بسيطة .. أين كنت تقف عندما دفنت السيارة تحت الجليد ؟

ـ فى ذلك المكان ..

ـ وكم كانوا يبعدون عنك ؟!

ـ حوالى خمسة أمتار ..

ـ هذا جيد .. فلنبدأ الحفر من أقرب نقطة .. انت بالعمال ليستخدموا معاولهم فى ذلك ..

ـ حسن ..

★ ★ ★

مرّت نصف ساعة .. وقد فتحنا أنبوبة الأكسجين الاحتياطية .. والجليد يزداد على المقاعد الأمامية للسيارة .. لقد استطعت حفر متر ونصف فى باطن الجليد .. ولكن درجة الحرارة منخفضة جدًا .. وقواى بدأت تتلاشى تدريجيًا .. آه .. لقد تعبت حقًا .. فتوقفت عن الحفر لحظات وأرحت رأسى على ذراعى .. حين جاء صوت الدكتور (ميشيل) من الخلف عند أول النفق يقول :

ـ إذا كنت مجهدًا يا (شريف) .. اجعلنى أحفر قليلاً ..

لاهثًا أجبته :

ـ لا .. ليس الآن ..

قالت (ناتاشا) :

ـ دكتور (شريف) .. أنا السبب فى هذا .. أليس كذلك ؟

ـ (ناتاشا) لا داعى لهذا الكلام ..

قال الدكتور (ميشيل) :

ـ نعم يا (ناتاشا) .. ليس هذا وقته ..

« فـــورر »

لقد بدأ النفق ينهار .. أسرعت فى الانزلاق لأسفل حتى عبرت النافذة .. وبرغم أن يدى كانت محشورة فى الثلوج .. ساعدنى الدكتور (ميشيل) فى سحبها .. لنقف مذهولين .. لقد ضاع الأمل مجددًا .. ولكن هل ضاع تمامًا ؟؟

★ ★ ★

١١ ـ ما بعد الانهيار ..

لقد مرّت ساعة .. ومؤشر الضغط فى أنبوبة الأكسجين يقترب من الصفر .. وأنا مستمر فى الحفر .. أقاتل من أجل الخروج أحياء ..

صحيح أننى وصلت إلى مسافة أطول وهى المتران والربع .. إلا أننى حذر جدًا هذه المرة .. فبعد كل جزء أحفره أحاول الضغط على جدران النفق لتظل ثابتة .. وصوت الدكتور (ميشيل) يأتى من الخلف :

ـ أعطنى فرصة واحدة .. حتى تستريح أنت .. ولو خمس دقائق ..

لم أستطع الرفض .. لقد شعرت بأن عضلاتى تأبى أن تنبسط ، وانقبضت فى عنف ، وكلما أحاول أن أحرك ذراعى لأضرب به تلك الثلوج .. جاءنى رفض عضلاتى لذلك .. فقلت :

ـ يمكنك ذلك يا دكتور (ميشيل) ..

ثم انزلقت فى خفة .. حتى عدت للسيارة من جديد .. تغوص قدماى فى هذه الكمية من الجليد ، والتى بدأ جزء منها

فى الانصهار بسبب حرارة المكان داخل السيارة .. أما الدكتور فقد تملكته الحماسة وتسلق النفق فى حذر .. بعد أن تناول منى البندقية .. التى بدأت ماسورتها فى الانحناء قليلاً .. حين قلت له :

ـ حذار يا دكتور أن تلمس ماسورة البندقية جدار النفق .

ـ اطمئن ..

أحت جسدى المنهك على أحد المقاعد .. مع تحريك ذراعى حتى لا ترتخى عضلاته .. عندئذ سمعت نبرات صوت (ناتاشا) الراقدة على المقعد الخلفى .. تقول فى خجل :

ـ أرجو ألاّ تكون غاضبًا منّى يا دكتور ..

تنهّدت فى عمق وقلت لها :

ـ هل هذا هو كل ما يهمك الآن ؟

ـ نعم ..

ـ والموت ؟!

ـ سيكون أفضل لو علمت أنك لست غاضبًا ..

ـ حسن .. الآن بدأت أطمئن إلى أنك لن تصرخى بعد خمس دقائق ..

ـ لماذا ؟

ـ لأن الأكسجين سينفد بعد هذا الزمن ..

* * *

وفى الخارج .. فى الوقت ذاته .. الخبير يقول :

ـ إلى أى عمق قد وصلت ؟

فيرد (ماردينى) :

ـ لم أتعد المترين ..

ـ الوقت يمر .. بهذا الشكل .. سيصابون بالاختناق ..

ـ وماذا يمكننى أن أ ..

ـ ماذا هناك ؟ اخرج بسرعة ..

ـ آه .. الحمد لله .. كنت سأدفن أنا الآخر ..

ـ ماذا حدث ؟ لماذا انهار النفق ؟

ـ يبدو أن هناك خلخلة ما فى الثلوج ..

ـ إذن .. الأفضل أن نحفر من أعلى ..

ـ حسن ..

★ ★ ★

« آه .. »

نطق بتلك الكلمة الدكتور (ميشيل) فى أثناء قيامه بالحفر .. فأدركته سريعًا ..

ـ ماذا حدث يا دكتور (ميشيل) ؟

ـ يبدو أن الجليد يتحرك من تحتى ..

ـ إذن اخرج من النفق ..

ـ لماذا ؟

ـ سأكمل الحفر .. الأكسجين قرب على النفاد ..

ـ حسن .. حسن .. لقد وصلت إلى ثلاثة أمتار ..

ـ هذا جيد ..

انزلق الدكتور إلى داخل السيارة .. ثم تناولت منه البندقية وبدأت فى الزحف صاعدًا النفق .. الذى يميل على الأفقى بحوالى ٣٠° .. حتى نضمن بذلك ألا يؤثر ثقل الجليد عليه مباشرة ..

وهأنذا أواصل تكسير تلك الثلوج بماسورة البندقية .. التى لن تصلح للاستعمال بعد ذلك .. وبعد كل مسافة أضغط بقوة على أجزاء الجدار حتى يظل النفق نفقًا .. ويمكننا الخروج منه ..

★ ★ ★

وفى الخارج فى الوقت ذاته .. يقول الخبير :

ـ احذر ..

فيرد (ماردينى) :

ـ اطمئن .. إن حفر ذلك النفق أسهل بكثير من الآخر ..

ـ حاول أن تسرع ..

وهأنذا أواصل تكسير تلك الثلوج بماسورة البندقية .. التى لن تصلح للاستعمال بعد ذلك .. وبعد كل مسافة أضغط بقوة على أجزاء الجدار حتى يظل النفق نفقًا ..

- أنا فى طريقى لأكمل مسافة المتر ..

- أتمنى أن نجدهم أحياء ..

★ ★ ★

لقد مرت ساعة وربع .. وأنبوبة الأكسجين قد فرغت .. وأسمع أنفاس الدكتور (ميشيل) وابنته .. بسبب نقص كمية الأكسجين فى السيارة .. بينما أنفاسى المتلاحقة لا يسمعها غيرى .. لقد وصلت إلى مسافة الأربعة أمتار .. ولم يبدُ أى ضياء لى .. آه .. ذراعى .. ليس ثانية .. لا .. لن أتوقف .. ظللت أضرب بالبندقية .. أضرب .. وأضرب .. وصوت الدكتور يأتى من أول النفق فى منتهى الإجهاد :

- دكتور .. (شريف) .. ابنتى .. بدأت .. تختنق !!

★ ★ ★

١٢ ـ المقـــاومة ..

لقد مرت ساعة ونصف الساعة .. أشعر بإجهاد غير عادى ، وبرودة تفوق الوصف .. إننى فى نفق جليدى .. يحيطنى الجليد من جميع الجوانب ما عدا الخلف .. غريبة حقًا تلك المنطقة .. إن كل من يتواجد بها تدفنه حيًا .. تحت ثلوجها المنهارة .. وفى الغالب هذا ما حدث للمملكة .. والتى لم يهنأ شعبها بالاستقرار .. بعد الهروب من بطش المغول .. أما أنا فلن أستسلم .. سأخرج .. وستخرج أنت أيضًا يا (جورناكوف) وشعبك .. ومملكتك .. من هذا القبر الثلجى .. أشعر بذلك ..

★ ★ ★

وفى الخارج .. فى الوقت ذاته .. الخبير يسأل (ماردينى) :

ـ هل تعديت المترين ؟

ـ لا أسمع صوتك ..

ـ [بصوت أعلى] .. هل تعديت المترين ؟

ـ اقتربت من ذلك ..

ـ أسرع يا (مـاردينى) .. وإذا كنت مرهقًا .. أرسل أحد العمال بدلاً منك ..

ـ لا .. أريد أن أكون بطلاً مثل الدكتور (شريف) .. ولو لمرة واحدة فى حياتى ..

★ ★ ★

آه .. لقد بدأت فى السعال .. إن رئتى قد قاومتا بكل ما أوتيتا من قوة .. ولكنهما الآن على شفا الاستسلام ..

لا .. لا أحب التلفظ بتلك الكلمة .. أو حتى سماعها ..

هل الجليد يزداد صلابة ؟ أم أننى أزداد ضعفًا ؟ وهل صحيح أننى اقتربت من الأمل ؟ أم أن عقلى يحاول إقناعى بذلك حتى لا أيئس ؟ وهل سأرى السماء مرة أخرى ؟ أم أنها أوهام تجول فى دهاليز فكرى ؟ وهل سأستطيع إنقاذ الدكتور وابنته ؟ أم سيقولون إننى تخاذلت ؟ آه .. إن عقلى يكاد ينفجر .. ولكن .. الصبر .. الصبر يا (شريف) ..

فبالصبر تحققت المعجزات .. ومعجزة نجاتنا هذه تحتاج إلى الصبر .. حسن ..

هأنذا أمسك ذراع البندقية من جديد .. وبيد مرتعشة مجهدة .. أخذت أستمر فى الحفر .. واضعًا فى مخيلتى صورة واحدة .. صورة تتكون من .. السماء .. والأرض .. والجبال .. ووسط كل هذا (ماردينى) والخبير وبقية العمال وهم يرحبون بنا .. فرحين لنجاتنا .. من الموت المحقق .

★ ★ ★

وفى الخارج .. فى الوقت ذاته (ماردينى) يقول :

ـ ماذا ؟!

فيجيبه الخبير :

ـ ماذا هناك يا (ماردينى) ؟

ـ أشعر بأننى سمعت صوتًا ما ..

ـ أمتأكد ؟

ـ نعم .

ـ إذن استمر .. استمر ..

ـ حسن ..

★ ★ ★

ما زلت أحفر .. ومن كثرة إجهادى .. لم أعد أشعر بذلك الإجهاد .. وأصبحت مثل الصائم .. الذى لم يعد يشعر بجوعه .. برغم شدة جوعه .. ولكنى فجأة توقفت .. لماذا توقفت ؟ يبدو أن صوت اصطدام مقدمة ماسورة البندقية بالثلوج أصبح مزدوجًا .. لماذا ؟ هل أُصبت بالهذيان ؟! حسن .. سأستريح لحظة قبل المواصلة .. ولكن .. مسامعى تلتقط صوتًا .. إذن .. لقد كنت على حق .. أرهفت سمعى إلى ذلك الصوت .. إنه صوت نقرات .. أخذت أهز رأسى قليلاً .. ربَّما كان هذا حلمًا .. عدت أسمع مرة أخرى .. إنها حقيقة .. حقيقة جعلتنى أستمرّ فى الحفر بلا هوادة .. أحفر .. وأحفر .. والصوت الآخر يزداد فى العلو .. إنه الأمل ..

★ ★ ★

وفى الخارج .. فى الوقت ذاته (ماردينى) يقول للخبير :

ـ إن الصوت يزداد ..

ـ لا أسمع صوتك ..

ـ إننى أسمع الصوت بوضوح ..

ـ هذا جيد .. استمر ..

★ ★ ★

بكل قوتى أضرب .. وكلما يزداد الصوت الآخر علوًا .. تزيد حماستى .. برغم صعوبة التنفس وبرودة المكان .. والآن .. فى أسفل ما أمامى من ثلوج متكدّسة .. أشعر بأنها تتحرك .. بل أراها تتحرك لأعلى .. تتناثر .. فابتعدت فى سرعة .. حين خرج من خلالها هذا الرأس الحادّ .. فصنعت فتحة صغيرة .. سرعان ما اتسعت مع زيادة ضربى لها بماسورة البندقية .. وأسمع صوتًا لم أسمعه منذ أكثر من ساعة ونصف مضت .. إنه صوت (ماردينى) الذى بدا لى وجهه المألوف من خلال الفتحة .. يقول فى سعادة :

ـ دكتور (شريف) !! حمدًا للّه على سلامتكم .. أين الباقون ؟

أجبته ـ فى سعادة مماثلة ـ بصوت منهك :

ـ فى .. الداخل ..

ثم أخذت نفسًا عميقًا .. فالهواء القادم من النفق الذى

صنعه (ماردينى) ملىء بالأكسجين .. وهو ما تشتاق إليه رئتاى فى هذا الوقت .. ثم قلت لـ (ماردينى) ..

ـ حاول أن توسع الفتحة أكثر .. وسآتى لك بهم .. كح كخ ـ حسن ..

وزحفت عائدًا للسيارة .. حين سمعت صوت (ماردينى) وهو يصيح لباقى المجموعة فى سعادة : « لقد وجدتهم .. »

★ ★ ★

عبرت نافذة السيارة .. ولكننى دخلت بصعوبة بسبب تلك الثلوج المتراكمة والناتجة عن الحفر .. وبصوت عالٍ .. ناديت الدكتور (ميشيل) وابنته .. لقد كانا نائمين .. أو بمعنى أكثر دقة .. كانا غارقين فى غيبوبة اختناق ..

أخذت أوقظهما بلا فائدة .. ماذا أفعل إذن ؟! آه .. جاءتنى فكرة .. ولكنها ثقيلة الوزن حقًا .. وأنا فى حالة لا تسمح بتنفيذها .. ولكن ..

حاملاً (ناتاشا) ـ التى أضحت لا تشعر بقدمها بسبب إغماءتها ـ ذهبت بها إلى النافذة .. ووضعتها على تلك الثلوج ولحسن الحظ أننى كنت أعرف مسبقًا أين الحبال بالسيارة .. وهى فى صندوق خاص فى تابلوه السيارة .. وربطت بأحد أطرافه جذع (ناتاشا) بإحكام .. ثم أخذت الطرف الآخر

وزحفت صاعدًا النفق .. آه .. إنه الإنهاك .. ولكنى أخيرًا .. وصلت إلى (ماردينى) وأعطيته طرف الحبل .. ووضحت له أن يجذبه عندما أعطيه إشارة معينة ..

أدخلت جسد (ناتاشا) فى فتحة النفق .. ثم جذبت الحبل مرتين ـ هذه هى الإشارة ـ فبدأت (ناتاشا) تبتعد من أمامى .. شيئًا فشيئًا .. فعدت للدكتور (ميشيل) .. أجذبه إلى المقدمة .. ياله من ثقيل الوزن .. وبعد أن وضعت جسده على الثلوج التى كست مقعد القيادة .. زحفت مرة أخرى فى النفق .. كح كح .. لآخذ طرف الحبل مرة أخرى من (ماردينى) ..

وبعد أن وصلت .. كان (ماردينى) يحلّ وثاق (ناتاشا) .. ثم أعطانى الحبل .. وبدأ فى سحب جسد (ناتاشا) .. لأعود أنا أدراجى .. أعود للدكتور (ميشيل) .. الذى لا يدرى بأنه على شفا حياة أخرى .. ربطت جذعه جيدًا .. ثم أدخلت جسده فى فتحة النفق .. برغم ثقل وزنه .. ثم أعطيت الإشارة لـ (ماردينى) .. وبعد أن غاب جسد الدكتور (ميشيل) فى ظلمة النفق .. وقفت أنا داخل السيارة .. أتطلع إليها .. ياه .. إن تلك السيارة كانت بمثابة القبر .. قبر يساوى ثلاثة ملايين دولار !! ولكن القبر مهما غلا ثمنه .. فهو مصنوع لشىء واحد .. الموت ..

★ ★ ★

١٣ ـ فوق سماء المملكة ..

كان صندوق الإسعافات الأولية مثبتًا فى سقف السيارة . صندوق صغير ملصق عليه علامة الصليب الأحمر .. تناولته .. مع جهاز لاسلكى .. وبندقية .. كانت مثبّتة بجوار الأخرى التى حفرنا بها .. وأعتقد أن هذه هى الأشياء التى أحتاج إليها .. آه .. الثلاجة .. فتحتها والتقطت منها بعض المعلبات .. حسن .. فلأنطلق ..

الخروج من النفق بهذه الأشياء ليس سهلاً .. ولكنى أخيرًا وصلت للفتحة .. وأعطيت تلك الأشياء لـ (ماردينى) .. الذى تناولها ليقذف بها خارج النفق الآخر .. ثم ساعدنى على عبور الفتحة إلى النفق الآخر .. وبدأ هو فى الزحف للوراء وهو يبتسم قائلاً :

ـ كم تسعدنى رؤيتك مرة أخرى يا دكتور (شريف) !!

ـ وأنا كذلك ..

خرج (ماردينى) .. ليفسح الطريق لضوء النهار حتى يدخل بقوة ويجبرنى على غلق عينىّ .. وتدريجيًا بدأت أعتاد الضوء .. حتى وجدت نفسى مطلاً من فتحة النفق على الطبيعة مرة أخرى ..

الأرض والسماء .. والجبال .. والأهم من ذلك مجموعة الفريق التى وقفت تهلّل لرؤيتى ..

كان البعد بين فتحة النفق والأرض حوالى المترين .. فأتى العمّال مع (ماردينى) يساعدوننى على النزول .. حين كان النفق ينهار من خلفى .. ولكن .. لا بأس ..

★ ★ ★

نصف ساعة قد مضى .. قصّ علىّ (ماردينى) خلاله كيف كان الموقف بالخارج لحظة فلحظة .. حتى خرجنا تحت الجليد .. والآن ، وبعد أن أفاق الدكتور وابنته .. جلسا يبتلعان بعض الأدوية المقوية .. والتى نالت معدتى منها بعض الكبسولات .. كنت قد استعدت قواى بعض الشىء .. فنهضت .. وقلت لـ (ماردينى) فى تحدٍّ :

ـ (ماردينى) .. أخبر العمال أننا سنواصل العمل ..

فرح (ماردينى) بشدة ، وركض يأمر العمال بزرع الديناميت ومن بعيد سألنى ..

ـ إلى أى عمق ؟

ـ أربعة أمتار ..

★ ★ ★

وضّحت الأمر للخبير بأنه احتمال بعيد لو حدث انهيار آخر .. إن هذه الثلوج التى تساقطت كانت ستسقط إن آجلاً أو عاجلاً .. ثم إنه لو حدث انهيار آخر سنكون نحن فى مأمن ..

وبالفعل .. فى أقل من خمس دقائق .. كنا نهبط إلى قاع تلك الحفرة فى سعادة بالغة .. بكل عدتنا وأدواتنا .. وشرع العمال يستمرون فى الحفر .. يستمرون .. يستمرون .. حتى ظهر ما كنا نتوقع .. إنها طبقة من الجليد الشفاف .. والذى يشبه الزجاج فى شفافيته .. ليس هذ فقط .. إنه يحتوى على شىء أشبه بقبة صغيرة .. قبة برج .. أخذنا نزيح بقية الثلوج المحيطة .. لتتسع البقعة الشفافة .. وتتسع ـ فى الوقت ذاته ـ عيوننا ذهولاً .. إنها المملكة المفقودة .. أقصد .. مملكة (جورناكوف) .. خيوط أشعة الشمس تكشف لنا كل شىء .. برج القصر الخشبى .. وقباب البيوت التى لا نكاد نراها .. حيث إنها أقل ارتفاعًا .. نحن نقف فوق سماء المملكة .. وكأننا طيور تحلق فوقها .. الذهول .. عندما يجذب لجام جواد الزمن .. ويجعلك تشعر بأن الزمن يساوى صفرًا .. هذا هو حقًا ما شعرنا به فى تلك اللحظات .. والتى قطعها صوت الدكتور (ميشيل) الذى أخذ يصعد الحفرة قائلاً :

ـ (ناتاشا) إنها المملكة المفقودة ..

★ ★ ★

لقد صممت على أن يحمل العمال (ناتاشا) إلى مكان الكشف .. وحين وصلت (ناتاشا) إلى قاع الحفرة .. فغرت فاها فى دهشة وهى تنظر إلى أسفل .. ثم قالت بصوت متقطع :

ـ إنها .. المملكة المفقودة ..

ـ لم تعد مفقودة بعد ..

ـ ولم لا تستمروا فى الحفر حتى نلمسها بأيدينا ؟

قال الخبير :

ـ لا ، إن هذا الجليد صلب جدًا .. ويجب أن يُعامَل بحساسية تامة .

ـ بجانب أنها ليست مهمتنا يا (ناتاشا) ..

ـ لا أصدق .. لقد تحقق الحلم ..

أكمل (ماردينى) :

ـ بفضل عبقرية الدكتور (شريف) ..

نظرت إلى (ماردينى) نظرة عتاب .. حين قال لى الدكتور (ميشيل) فى إعجاب :

ـ لا .. لا تعاتبه يا (شريف) .. إنه يقول الحق .. لقد قسوت عليك كثيرًا .. ولكنك أثبت كل ما سمعته عن المصريين ..

بعد سماع تلك الكلمات الرقيقة .. لم أستطع منع نفسى من احتضان الدكتور (ميشيل) فى مشهد درامى .. ووسط تصفيق أفراد البعثة .. ودموع (ناتاشا) .. قال لى الدكتور (ميشيل) : وخيوط أشعة الشمس التى أوشكت على الغروب تلون وجهه بلون أبوى حان :

ـ (شريف) .. أنت ابنى الذى لم أنجبه ..

ـ دكتور (ميشيل) .. أنت الأب الروحى الثانى بالنسبة لى ..

★ ★ ★

وعندما صعدنا إلى أعلى الحفرة .. وجدنا سيارتى (جيب) ورجلين يجوّلان فى المنطقة .. ولكن بعد أن رأونا .. أتوا إلينا مسرعين حين قال أحدهم :

ـ هل أنتم أفراد بعثة قاعدة (أومسك) ؟

أجابه (ماردينى) فى تساؤل :

ـ نعم .. ولكن من أنتم ؟

ـ نحن من مركز (كراسنويارسك) لهواة تسلق الجبال ..

ـ ولماذا جئتم إلى هنا ؟

ـ لإنقاذ الدكتور (شريف) ومن معه ..

نظرت إلى (ماردينى) مبتسمًا .. ثم التفتّ إلى الرجل .. وقلت له :

ـ أنا الدكتور (شريف) ..

اندهش الرجل وقال لى :

ـ لقد اتصل بنا مدير قاعدة (أو ..) ..

ـ نعم .. نعم .. أفهم كل شىء ..

ـ ولكنى لا أفهم شيئًا ..

ـ كل شىء سأحكيه لك فى الطريق ..

ـ ولكن .. إن العدد كبير .. وتلك الأدوات ..

ـ إن الشمس قاربت على المغيب .. لا يمكننا الانتظار أكثر من ذلك ..

ـ ولكن ..

التفتّ إلى أفراد البعثة صائحًا ..

ـ هيا يا رفاق ..

★ ★ ★

لقد كانت كل سيارة تسير مثل السلحفاة من جرّاء ثقل الوزن .. وزن أفراد المجموعة .. والعدد والآلات .. وبرغم صوت غناء وفرحة المجموعة .. كنت أسمع أنين المحرك .. وكأنه يتوسل إلينا أن نرحمه وبرغم كل ذلك .. كنت شاردًا .. أرمق قرص الشمس الأرجوانى .. وأحدّث نفسى : يأيها التاريخ .. ها قد لبيت نداءك .. وكنت عند حسن ظنك ، وهأنتذا تخرج للنور .. لكى يتعرفك كل عاشق لك .. ويحتضنك كل باحث عنك .. وتُسلّط عليك الأضواء ..

أما أنت يا (جورناكوف) .. يا من ضحيت بولدك من أجل شعبك .. وبرغم ذلك .. لم ترحمك الطبيعة هى الأخرى .. لقد طمرت مملكتك تحت ثلوجها منذ مئات السنين .. وكادت أن تفعلها معنا .. ولكننا انتصرنا عليها وخرجنا .. وخرجت مملكتك أيضًا .. حتى ننعم جميعًا بضوء الشمس مرة أخرى ..

أما أنا .. فلن أنعم بضوء الشمس فعلاً إلا فى وطنى .. مصر ..

★ ★ ★

(تمت بحمد الله)

روايات مصرية للجيب

سلة الروايات

في كل رواية متعة دائمة !!

المغامر العنيد

المملكة المفقودة

معتز عبد اللطيف

بتكليف خاص من وزير الثقافة الروسى .. أذهب للبحث عن مملكة (چورناكوڤ) المدفونة تحت الجليد .. الخريطة تقول إنها تقع جنوبى صحراء (سيبريا) .. ولكن الواقع أفظع بكثير ..

الثمن فى مصر ٢٠٠
وما يعادله بالدولار الأمريكى
فى سائر الدول العربية والعالم

مطابع سلام الفنية